حَقيقَة الجِنّ

في ظِلالِ القُرآنِ

للشهيد سَيِّد قطب

أعدَّه وخرَّج أحاديثه وقدم له

عكاشة عبد المنان الطيبي

دار الفضيلة

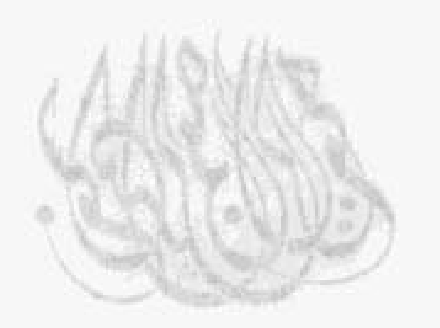
دار الفضيلة

للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس ٦٦٢٢٢٢٢
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٢٩٠٩٢٣١
الإمارات: دبي - ديرة - ص.ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦







المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ..

وبعـد :

إنَّ هذا الكتاب الذى بين أيدينا من خِيرَةِ الكتب التي تناولت الجن وبيان مؤمنهم وكافرهم واتصالهم بالإنسان وتلبسهم به وطريقة الخلاص من صرعهم ومسهم وبيان ما ينجي من شرورهم وهذا الكتاب من تُحَفِ الشهيد/ سيد قطب رحمه الله ..

أما عملي في الكتاب :

فقد قمت باستقصاء كل ما كتبه سيد قطب رحمه الله فى الظلال عن الجن وطرق التحصن من شرورهم ، كما قمت بتبويب الكتاب ليسهل على القارئ بيان ما تحمله فقراته .. كما خرَّجْتُ الأحاديث التى ساقها سيد قطب رحمه الله مستشهداً بها فى كتابه وَبَيَّنْتُ صِحَّتَها .

عكاشة عبد المنان الطيبى

نبذة من حياة سيد قطب رحمه الله

هو سيد بن قطب بن إبراهيم ، ولد سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م وتوفى سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٦ م : مفكر إسلامى مصري ، من مواليد قرية « موشا » في أسيوط ، تخرج في كلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤ م وعمل فى جريدة الأهرام ، وكتب في مجلتى « الرسالة » و« الثقافة » وعُيِّنَ مُدَرِّساً للعربية ، فموظفاً في ديوان وزارة المعارف ، ثم « مراقباً فنياً » للوزارة ، وأُوفد فى بعثة لدراسة « برامج التعليم » فى أمريكا ١٩٤٨ - ١٩٥١ ولمَّا عاد انتقد البرامج المصرية وكان يراها من وضع الإنجليز ، وطالب ببرامج تتمشى والفكرة الإسلامية ، وبنى على هذا استقالته ١٩٥٣م - العام الثانى للثورة ، وانضم إلى الإخوان المسلمين ، فترأس قسم نشر تحرير جريدتهم ١٩٥٣ م - ١٩٥٤ م وَسُجِنَ معهم ، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو فى سجنه ، إلى أن صدر الأمر بإعدامه ، فأُعدم ، قال خالد محيى الدين - أحد أقطاب الثورة المصرية - فيما كتب عنه : كان سيد قطب قبل الثورة من أكثر المفكرين الإسلاميين وضوحًا ، ومن العجيب أنه انقلب - بعد قيام الثورة - ناقمًا متمردًا على كل ما يحدث حوله ، لا يراه إلَّا جاهلية مظلمة .

وكتبه كثيرة مطبوعة متداولة ، منها : « النقد الأدبى أصوله ومنهاجه » و« العدالة الإجتماعية فى الإسلام » و« التصوير الفنى فى القرآن » و« مشاهد القيامة فى القرآن » و« كتب وشخصيات » و« أشواك » و« الإسلام ومشكلات الحضارة » و« السلام العالمى والإسلام » و« المستقبل لهذا الدين » و« فى ظلال القرآن » و« معالم فى الطريق » .... إلخ .

ولما وصل خبر استشهاده إلى المغرب أُقيمت على روحه صلاة الغائب وأصدر أبو بكر القادرى عدداً خاصاً به من مجلة « الإيمان » ولما كانت النكسة - أو النكبة - عام ١٩٦٧ م قال علَّالِ الفاسى : ما كان الله لينصر حرباً يقودها قاتل سيد قطب .

وكتب إبراهيم بن عبد الرحمن البليهى - من طلاب كلية الشريعة فى الرياض - مجلداً سماه : « سيد قطب وتراثه الأدبى والفكرى » .

رحم الله الشهيد وأسكنه فسيح جنانه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ».

★□★□★□★□★

حقيقة وجود الجن فى التصور الإسلامى

هذه الحقائق تتلخص فى أن هنالك خلقاً اسمه الجن ، مخلوق من النار ، لقول إبليس فى الحديث عن آدم : ﴿ **أنا خيرٌ منه خلقتنى من نارٍ وخلقتهُ مِن طينٍ** ﴾[1] وإبليس من الجن لقول الله تعالى : ﴿ **إلّا إبليس كانَ من الجنّ ففسقَ عن أمرِ ربّه** ﴾[2] فأصله من أصل الجن .

وأن هذا الخلق له خصائص غير خصائص البشر ، منها خلقته من نار ، ومنها أنه يرى الناس ولا يراه الناس ، لقوله تعالى عن إبليس – وهو من الجن –: ﴿ **إنّه يراكمْ هو وقبيله من حيث لا ترونهُم** ﴾[3].

وأن له تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر فى قبائل وأجناس ، للقول السابق : ﴿ **إنه يراكمْ هو وقبيله ...** ﴾ .

وأن له قدرة على الحياة فى هذا الكوكب الأرضى – لا ندرى أين – لقوله تعالى لآدم وإبليس معاً : ﴿ **اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدو ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين** ﴾[4].

والجن الذين سُخِّروا لسليمان عليه السلام كانوا يقومون له بأعمال فى الأرض تقتضى أن يكونوا مزودين بالقدرة على الحياة فيها .

وأن له قدرة كذلك على الحياة خارج هذا الكوكب لقول الله تعالى حكاية عن الجن : ﴿ **وأنا لمسنا السماء فوجدناها مُلِئت حرساً شديداً وشُهُباً ◌ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصداً** ﴾[5].

وأنه يملك التأثير فى إدراك البشر وهو مأذون فى توجيه الضالين منهم – غير عباد الله – للنصوص السابقة ، ولقوله تعالى فى حكاية حوار إبليس اللعين : ﴿ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ◌ إلّا عبادك منهم المخلصين** ﴾[6].

وغير هذا من النصوص المماثلة ، ولكنا لا نعرف كيف يوسوس ويوجه وبأى أداة .

---

(١) الأعراف : ١٢ . (٢) الكهف : ٥٠ . (٣) الأعراف : ٢٧ .
(٤) البقرة : ٣٦ . (٥) الجن : ٨ – ٩ . (٦) ص : ٨٢ – ٨٣ .

وأنه يستطيع أن يسمع صوت الإنسان ويفهم لغته ، بدلالة استماع نفر من الجن للقرآن وفهمه والتأثر به .

وأنه قابل للهدى وللضلال بدلالة قول هذا النفر في سورة الجن : ﴿ **وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً** ﴾[1]، وبدليل ذهابهم إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الإيمان ، بعدما وجدوه فى نفوسهم ، وعلموا أن قومهم لم يجدوه بعد .

وهذا هو القدر المستيقن فى أمر الجن ، وهو حسبنا ، بلا زيادة عليه ليس عليها من دليل .

عبادة مشركى العرب للجن

قال تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2].

لقد كان بعض مشركى العرب يعبدون الجن .. وهم لا يعرفون من هم الجن ؟! ولكنها أوهام الوثنية ! والنفس متى انحرفت عن التوحيد المطلق قيْدَ شبر انساقت فى انحرافها إلى أى مدى ، وانفرجت المسافة بينها وبين نقطة الانحراف التى بدأت صغيرة لا تكاد تلحظ ! وهؤلاء المشركون كانوا على دين إسماعيل .. دين التوحيد الذى جاء به إبراهيم عليه السلام فى هذه المنطقة .. ولكنهم انحرفوا عن هذا التوحيد .. ولابد أن يكون الانحراف قد بدأ يسيراً .. ثم انتهى إلى مثل هذا الانحراف الشنيع .. الذى يبلغ أن يجعل الجن شركاء لله .. وهم من خلقه سبحانه :

(١) الجن : ١٤ - ١٥.

(٢) الأنعام : ١٠٠ - ١٠١ .

﴿ وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُم ﴾ !

ولقد عرفت الوثنيات المتعددة فى الجاهليات المتنوعة أن هناك كائنات شريرة - تشبه فكرة الشياطين - وخافوا هذه الكائنات - سواء كانت أرواحاً شريرة أو ذوات شريرة - وَقَدَّمُوا لها القرابين اتقاء لشرها ، ثم عبدوها !

والوثنية العربية واحدة من هذه الوثنيات التى وجدت فيها هذه التصورات الفاسدة ، فى صورة عبادة للجن ، واتخاذهم شركاء لله .. سبحانه ..

والسياق القرآنى يواجههم بسخف هذا الاعتقاد ، يواجههم بكلمة واحدة : ﴿ وَخَلَقَهُم ﴾ ..

وهى لفظة واحدة ، ولكنها تكفى للسخرية من هذا التصور ! فإذا كان الله سبحانه هو الذى خلقهم فكيف يكونون شركاء له فى الألوهية والربوبية ؟

ولم تكن تلك وحدها دعواهم ، فأوهام الوثنية متى انطلقت لا تقف عند حد من الانحراف ، بل كانوا يزعمون له سبحانه بنين وبنات : ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بنينَ وبناتٍ بغيرِ علمٍ ﴾ .

و« خَرَقُوا » أى : اختلقوا .. وفى لفظها جرس خاص وظل خاص ، يرسم مشهد الطلوع بالفرية التى تخرق وتنشق !

خرقوا له بنين : عند اليهود : عزير ، وعند النصارى : المسيح ، وخرقوا له بنات ، عند المشركين : الملائكة وقد زعموا أنهم إناث .. ولا يدرى أحد طبعاً لماذا هم إناث ! فالادعاءات كلها لا تقوم على أساس من علم .. فكلها : ﴿ بغير علم ﴾ .

﴿ سبحانَهُ وتعالَى عمَّا يَصِفُون ﴾ !

ثم يواجه فريتهم هذه وتصوراتهم بالحقيقة الإلهية ، ويناقشهم فى هذه التصورات بما يكشف عما فيها من هلهلة :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1]

---

(١) الأنعام : ١٠١ .

إن الذى يبدع هذا الوجود إبداعاً من العدم ما تكون حاجته إلى الخلف ؟! والخلف إنما هو امتداد الفانين وعون الضعفاء ، ولذة من لا يبدعون !

ثم هم يعرفون قاعدة التكاثر .. أن يكون للكائن صاحبة ، أنثى من جنسه .. فكيف يكون لله ولد وليست له صاحبة وهو سبحانه فرد أحد ، ليس كمثله شيء ، فأنى يكون النسل بلا تزاوج ؟!

وهى حقيقة ، ولكنها تواجه مستواهم التصورى ، وتخاطبهم بالأمثلة القريبة من حياتهم ومشاهداتهم ! ويتكئ السياق فى مواجهتهم على حقيقة « الخلق » لنفى كل ظل للشرك ، فالمخلوق لا يكون أبداً شريكًا للخالق ، وحقيقة الخالق غير حقيقة المخلوق : كما يواجههم بعلم الله المطلق الذى لا تقابله منهم إلا أوهام وظنون : ﴿ **وخلق كُلَّ شيء** ﴾ ..
﴿ **وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

وكما واجههم السياق القرآنى بحقيقة أن الله « خلق كل شيء » ليرتب عليها تهافت تصوراتهم بأن لله سبحانه بنين وبنات ، أو أن له شركاء الجن وهو خلقهم فإنه يتكئ على هذه الحقيقة مرة أخرى ، لتقرير أن الذى يعبد ويخضع له ويطاع ، ويعترف له بالدينونة وحده هو خالق كل شيء فلا إله إذن غيره ، ولا رب إذن سواه :

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾[1].

أسطورة الصلة بين الله وبين الجن

قال تعالى :

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ

(١) الأنعام : ١٠٢ .

شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1]

يوجه الله سبحانه وتعالى فى هذا الشوط الأخير من السورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يناقش معهم تلك الأسطورة التى يزعمون فيها أن الملائكة بنات الله ، والأسطورة الأخرى التى يزعمون فيها أن بينه سبحانه وبين الجنة نسباً ، وأن يواجههم بما كانوا يقولونه قبل أن تأتيهم هذه الرسالة من تمنيهم أن يرسل الله فيهم رسولاً ، ومن أنهم على استعداد للهدى لو جاءهم رسول ، وكيف كفروا عندما جاءهم الرسول .. وتُختم السورة بتسجيل وعد الله لرسله أنهم هم الغالبون ، وبتنزيه الله سبحانه عما يصفون ، والتوجه بالحمد لله رب العالمين .

إنه يحاصر أسطورتهم فى كل مساربها ، ويحاجهم بمنطقهم ومنطق بيئتهم التى يعيشون فيها ، وهم كانوا يؤثرون البنين على البنات ، ويعدون ولادة الأنثى محنة ، ويعدون الأنثى مخلوقاً أقل رتبة من الذكر ، ثم هم الذين يدعون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله !

فهو هنا يستطرد معهم وفق منطقهم ، ويأخذهم به ليروا مدى تهافت الأسطورة وسخفها حتى بمقاييسهم الشائعة :

﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون** ﴾ ؟

أئذا كان الإناث أقل رتبة كما يدعون ، جعلوا لربهم البنات واستأثروا هم بالبنين ؟ أو اختار الله البنات وترك لهم البنين ؟ إن هذا أو ذاك لا يستقيم !

---

(١) الصافات : ١٤٩ - ١٥٩ .

فاسألهم عن هذا الزعم المتهافت السقيم .

واستفتهم كذلك عن منشأ الأسطورة كلها ، من أين جاءهم علم أن الملائكة إناث ؟ وهل هم شهدوا خلقهم فعرفوا جنسهم ؟

﴿ **أم خلقنا الملائكة إناثاً وهُم شاهِدون** ﴾ ؟

ويستعرض نص مقولتهم المفتراة الكاذبة على الله :

﴿ **ألا إنَّهُم من إفكِهِم ليقولون ، وَلَدَ اللهُ وإنَّهُم لكاذِبُون** ﴾ ..

وهم كاذبون حتى بحكم عرفهم الشائع ومنطقهم الجارى فى اصطفاء البنين على البنات ، فكيف اصطفى الله البنات على البنين ؟

﴿ **أصْطَفَى البناتِ على البنِين** ﴾ !

ويعجب من حكمهم الذى ينسون فيه منطقهم الجاري :

﴿ **مَالكُم كيفَ تحكُمُون ، أفَلا تذكَّرُون** ﴾ ..

ومن أين تستمدون السند والدليل على الحكم المزعوم ؟

﴿ **أم لَكُم سُلطانٌ مبينٌ ، فَأْتُوا بكتابِكُم إن كُنتم صَادِقِين** ﴾ ..

والأسطورة الأخرى ، أسطورة الصلة بينه سبحانه وبين الجنة :

﴿ **وَجَعَلُوا بَينَهُ وبينَ الجنَّةِ نَسَباً ولقد عَلِمَتِ الجنَّةُ إنَّهم لمحضَرُون** ﴾ ..

وكانوا يزعمون أن الملائكة هم بنات الله بزعمهم ولدتهم له الجِنَّةُ !وذلك هو النسب والقرابة ! والجن تعلم أنها خلق من خلق الله ، وأنها محضرة يوم القيامة بإذن الله ، وما هكذا تكون معاملة النسب والصهر !

وهنا ينزه ذاته سبحانه عن هذا الإفك المتهافت :

﴿ **سُبحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُون** ﴾ .

شياطين الإنس والجن

قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ

﴿ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[1]

﴿ **وَكَذَٰلِكَ** ﴾ كالذى قدرناه من أن أولئك المشركين الذين يُعَلِّقُونَ إيمانهم بمجيء الخوارق ، وَيُعْرِضُونَ عن دلائل الهدى وموحياته فى الكون والنفس ، لا يقع منهم الإيمان ولو جاءتهم كل آية .

كالذى قدرناه فى شأن هؤلاء ، قدرنا أن يكون لكل نبى عدو ، هم شياطين الإنس والجن ، وقدرنا أن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليخدعوهم به ويغروهم بحرب الرسل وحرب الهدى ، وقدرنا أن تصغى إلى هذا الزخرف أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويرضوه ، ويقترفوا ما يقترفونه من العداوة للرسل وللحق ، ومن الضلال والفساد فى الأرض .

كل ذلك إنما جرى بقدر الله ، وفق مشيئته ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، ولمضت مشيئته بغير هذا كله ، ولجرى قدره بغير هذا الذى كان ، فليس شيء من هذا كله بالمصادفة ، وليس شيء من هذا كله بسلطان من البشر كذلك أو قدرة !

فإذا تقرر أن هذا الذى يجرى فى الأرض من المعركة الناشبة التى لا تهدأ بين الرسل والحق الذى معهم ، وبين شياطين الإنس والجن وباطلهم وزخرفهم وغرورهم .. إذا تقرر أن هذا الذى يجرى فى الأرض إنما يجرى بمشيئة الله ويتحقق بقدر الله ، فإن المسلم ينبغى أن يتجه إذن إلى تدبر حكمة الله من وراء ما يجرى فى الأرض ، بعد أن يدرك طبيعة هذا الذى يجرى والقدرة التى وراءه ..

﴿ وكَذَٰلِكَ جعَلنا لكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَياطِينَ الإنسِ والجِنِّ يُوحِي بعضُهُم إلى بعضٍ زُخرفَ القولِ غُروراً .. ﴾

بإرادتنا وتقديرنا ، جعلنا لكل نبى عدواً .. هذا العدو هو شياطين الإنس والجن .. والشيطنة وهى التمرد والغواية والتمحض للشر صفة تلحق الإنس كما تلحق الجن ، وكما أن الذى يتمرد من الجن ويتمحض للشر والغواية يسمى شيطاناً ، فكذلك الذى يتمرد من الإنس ويتمحض للشر والغواية .. وقد

(١) الأنعام : ١١٢ .

يوصف بهذه الصفة الحيوان أيضاً إذا شرس وتمرد واستشرى أذاه !

وقد ورد : « الكلب الأسود شيطان »[1] .

هؤلاء الشياطين من الإنس والجن الذين قدر الله أن يكونوا عدواً لكل نبى ، يخدع بعضهم بعضاً بالقول المزخرف ، الذى يوحيه بعضهم إلى بعض - ومن معانى الوحى التأثير الداخلى الذى ينتقل به الأثر من كائن إلى كائن آخر - ويغر بعضهم بعضاً ، ويحرض بعضهم بعضاً على التمرد والغواية والشر والمعصية .

وشياطين الإنس أمرهم معروف ومشهود لنا فى هذه الأرض ، ونماذجهم ونماذج عدائهم لكل نبى ، وللحق الذى معه ، وللمؤمنين به ، معروفة يملك أن يراها الناس فى كل زمان .

فأما شياطين الجن - والجن كله - فهم غيب من غيب الله ، لا نعرف عنه إلّا ما يخبرنا به مَن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو .. ومن ناحية مبدأ وجود خلائق أخرى فى هذا الكون غير الإنسان وغير الأنواع والأجناس المعروفة فى الأرض من الأحياء .. نقول من ناحية المبدأ نحن نؤمن بقول الله عنها ، ونصدق بخبره فى الحدود التى قررها ، فأما أولئك الذين يتترسون « بالعلم » لينكروا ما يقرره الله فى هذا الشأن ، فلا ندرى علام يرتكنون ؟ إن علمهم البشرى لا يزعم أنه أحاط بكل أجناس الأحياء ، فى هذا الكوكب الأرضى ! كما أن علمهم هذا لا « يعلم » ماذا فى الأجرام الأخرى ! وكل ما يمكن أن « يفترضه » أن نوع الحياة الموجود فى الأرض يمكن أو لايمكن أن يوجد فى بعض الكواكب والنجوم .. وهذا لا يمكن أن ينفى - حتى لو تأكدت الفروض - أن أنواعاً أخرى من الحياة وأجناساً أخرى من الأحياء يمكن أن تعمّر جوانب أخرى فى الكون لا يعلم هذا « العلم » عنها شيئاً ! فمن التحكم والتبجح أن ينفى أحد باسم « العلم » وجود هذه العوالم الحية الأخرى .

---

(١) أخرجه مسلم (الصلاة) ب ٥ رقم ٢٦٥ ، والنسائى (القبلة) ب ٧ وأبو داود (الصلاة) ب ١١٠ ، والترمذى (٣٣٨) ، وابن ماجه (٩٥٢) ، وأحمد ١٤٩/٥ و ١٥١ و ١٥٦ و ١٦٠ ، والبيهقى ،٢٧٤/٢ ، وابن خزيمة (٨٣٠) و (٨٣١) وأبو عوانة ٤٧/٢ ، و « الكنز » (١٩٢١٤) و (١٩٢٣٦) و (١٩٢٣٧) و (١٩٢٣٨) ، والقرطبى ٦٧/٦ ، وابن أبى شيبة ٢٨١/١ ، وابن عساكر ٧٨/٣ ، وابن عدى ٣٩٢/١ و ٢٣٥٦/٦ .

وأما من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ، والذى يتشيطن بعضه ويتمحض للشر والغواية – كإبليس وذريته – كما يتشيطن بعض الإنس .. من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ، نحن لا نعلم عنه إلّا ما جاءنا الخبر الصادق به عن الله سبحانه وعن رسول الله (ﷺ) .

ونحن نعرف أن هذا الخلق مخلوق من مارج من نار ، وأنه مزود بالقدرة على الحياة فى الأرض وفى باطن الأرض وفى خارج الأرض أيضاً ، وأنه يملك الحركة فى هذه المجالات بأسرع مما يملك البشر ، وأن منه الصالحين المؤمنين ، ومنه الشياطين المتمردين ، وأنه يرى بنى آدم وبنو آدم لا يرونه – فى هيئته الأصلية – وكم من خلائق ترى الإنسان ولا يراها الإنسان ! وأن الشياطين منه مسلطون على بنى الإنسان يغوونهم ويضلونهم ، وهم قادرون على الوسوسة لهم والإيحاء بطريقة لا نعلمها ، وأن هؤلاء الشياطين لا سلطان لهم على المؤمنين الذاكرين . وأن الشيطان مع المؤمن إذا ذَكَرَ الله خنس وتوارى وإذا غَفَلَ برز فوسوس له ! وأن المؤمن أقوى بالذكر من كيد الشيطان الضعيف ، وأن عالم الجن يحشر مع عالم الإنس ، ويحاسب ، ويجازى بالجنة وبالنار كالجنس الإنسانى ، وأن الجن حين يقاسون إلى الملائكة يبدون خلقًا ضعيفاً لا حول له ولا قوة !

وفى هذه الآية نعرف أن الله سبحانه قد جعل لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن .

ولقد كان الله سبحانه قادراً لو شاء ألّا يفعلوا شيئاً من هذا .. ألّا يتمردوا ، وألّا يتمحضوا للشر ، وألّا يعادوا الأنبياء ، وألّا يؤذوا المؤمنين ، وألّا يضلوا الناس عن سبيل الله .. كان الله سبحانه قادراً أن يقهرهم قهراً على الهدى ، أو أن يهديهم لو توجهوا للهدى ، أو أن يعجزهم عن التصدى للأنبياء والحق والمؤمنين به .. ولكنه سبحانه ترك لهم هذا القدر من الاختيار ، وأذن لهم أن تمتد أيديهم بالأذى لأولياء الله – بالقدر الذى تقضى به مشيئته ويجرى به قدره – وقدَّر أن يُبْتَلى أولياءه بأذى أعدائه ، كما يبتلى أعداءه بهذا القدر من الاختيار والقدرة الذى أعطاهم إياه ، فما يملك هؤلاء أن يوقعوا بأولياء الله من الأذى إلا ما قدر الله : ﴿ **وَلو شَاءَ رَبُّكَ ما فعلُوه** ﴾ .

فما الذى يخلص لنا من هذه التقريرات ؟

يخلص لنا ابتداء : أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبى ، ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء .. هم شياطين ! شياطين من الإنس ومن الجن . وأنهم يؤدون جميعاً – شياطين الإنس والجن – وظيفة واحدة ! وأن بعضهم يخدع بعضاً ويضله كذلك مع قيامهم جميعاً بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله .

ويخلص لنا ثانياً : أن هؤلاء الشياطين لا يفعلون شيئاً من هذا كله ، ولا يقدرون على شيء من عداء الأنبياء وإيذاء أتباعهم بقدرة ذاتية فيهم ، إنما هم فى قبضة الله ، وهو يبتلى بهم أولياءه لأمر يريده من تمحيص هؤلاء الأولياء ، وتطهير قلوبهم ، وامتحان صبرهم على الحق الذى هم عليه أمناء ، فإذا اجتازوا الامتحان بقوة كف الله عنهم الابتلاء ، وكف عنهم هؤلاء الأعداء ، وعجز هؤلاء الأعداء أن يمدوا إليهم أيديهم بالأذى وراء ما قدر الله ، وآب أعداء الله بالضعف والخذلان ، وبأوزارهم كاملة يحملونها على ظهورهم :

﴿ ولو شاءَ رَبُّكَ ما فَعلُوه ﴾ .

ويخلص لنا ثالثاً : أن حكمة الله الخالصة هى التى اقتضت أن يترك لشياطين الإنس والجن أن يتشيطنوا – فهو إنما يبتليهم فى القدر الذى تركه لهم من الاختيار والقدرة – وأن يدعهم يؤذون أولياءه فترة من الزمان – فهو إنما يبتلى أولياءه كذلك لينظر : أيصبرون ؟ أيثبتون على ما معهم من الحق بينما الباطل ينتفش عليهم ويستطيل ؟ أيخلصون من حظ أنفسهم فى أنفسهم ويبيعونها بيعة واحدة لله ، على السرَّاء وعلى الضرَّاء سواء ، وفى المنشط والمكره سواء ؟ وإلا فقد كان الله قادراً على ألا يكون شيء من هذا الذى كان !

ويخلص لنا رابعاً : هوان الشياطين من الإنس والجن ، وهوان كيدهم وأذاهم ، فما يستطيلون بقوة ذاتية لهم ، وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم ، والمؤمن الذى يعلم أن ربه هو الذى يُقدِّر ، وهو الذى يأذن ، خليق أن يستهين بأعدائه من الشياطين ، مهما تبلغ قوتهم الظاهرة وسلطانهم المدَّعى ، ومن هنا هذا التوجيه العلوى لرسول الله الكريم :

﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ .

دعهم وافتراءهم ، فأنا من ورائهم قادر على أخذهم ، مدخر لهم جزاءهم .

وهناك حكمة أخرى غير ابتلاء الشياطين ، وابتلاء المؤمنين ؛ لقد قدر الله أن يكون هذا العداء ، وأن يكون هذا الإيحاء ، وأن يكون هذا الغرور بالقول والخداع - لحكمة أخرى :

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾[1].

أى لتستمع إلى ذلك الخداع والإيحاء قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة . فهؤلاء يحصرون همهم كله فى الدنيا ، وهم يرون الشياطين فى هذه الدنيا يقفون بالمرصاد لكل نبى ، وينالون بالأذى أتباع كل نبى ، ويزين بعضهم لبعض القول والفعل ، فيخضعون للشياطين ، معجبين بزخرفهم الباطل ، معجبين بسلطانهم الخادع ، ثم يكسبون ما يكسبون من الإثم والشر والمعصية والفساد ، فى ظل ذلك الإيحاء ، وبسبب هذا الإصغاء .

وهذا أمر أراده الله كذلك وجرى به قدره ، لما وراءه من التمحيص والتجربة ، ولما فيه من إعطاء كل أحد فرصته ليعمل لما هو ميسر له ، ويستحق جزاءه بالعدل والقسطاس .

ثم لتصلح الحياة بالدفع ، ويتميز الحق بالمفاصلة ، ويتمحض الخير بالصبر ، ويحمل الشياطين أوزارهم كاملة يوم القيامة ، وليجرى الأمر كله وفق مشيئة الله ، أمر أعدائه ، وأمر أوليائه على السواء ؛ إنها مشيئة الله ، والله يفعل ما يشاء .

والمشهد الذى يرسمه القرآن الكريم للمعركة بين شياطين الإنس والجن من ناحية ، وكل نبى وأتباعه من ناحية أخرى ، ومشيئة الله المهيمنة وقدره النافذ من ناحية ثالثة ؛ هذا المشهد بكل جوانبه جدير بأن نقف أمامه وقفة قصيرة :

---

(١) الأنعام : ١١٣ .

إنها معركة تتجمع فيها قوى الشر فى هذا الكون ؛ شياطين الإنس ، والجن تتجمع فى تعاون وتناسق لإمضاء خطة مُقَرَّرَةٍ ؛ هى عداء الحق الممثل فى رسالات الأنبياء وحربه ، خطة مقررة فيها وسائلها ﴿ **يُوحِى بعضُهُم إلى بعضٍ زخرف القولِ غروراً** ﴾ يمد بعضهم بعضاً بوسائل الخداع والغواية ، وفى الوقت ذاته يغوى بعضهم بعضاً ! وهى ظاهرة ملحوظة فى كل تجمع للشر فى حرب الحق وأهله .. إن الشياطين يتعاونون فيما بينهم ، ويعين بعضهم بعضاً على الضلال أيضاً ! إنهم لا يهدون بعضهم البعض إلى الحق أبداً ، ولكن يزين بعضهم لبعض عداء الحق وحربه والمضى فى المعركة معه طويلاً !

ولكن هذا الكيد كله ليس طليقاً - إنه محاط به بمشيئة الله وقدره - لا يقدر الشياطين على شىء منه إلّا بالقدر الذى يشاءه الله وينفذه بقدره ، ومن هنا يبدو هذا الكيد - على ضخامته وتجمع قوى الشر العالمية كلها عليه - مقيداً مغلولاً ! إنه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط ، ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع - كما يحب الطغاة أن يلقوا فى روع من يعبدونهم من البشر ، ليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وإرادتهم كلا ! إن إرادتهم مقيدة بمشيئة الله ، وقدرتهم محدودة بقدر الله ، وما يضرون أولياء الله بشىء إلاّ بما أراده الله - فى حدود الابتلاء - ومرد الأمر كله إلى الله.

ومشهد التجمع على خطة مقررة من الشياطين جدير بأن يسترعى وعى أصحاب الحق ليعرفوا طبيعة الخطة ووسائلها ، ومشهد إحاطة مشيئة الله وقدره بخطة الشياطين وتدبيرهم جدير كذلك بأن يملأ قلوب أصحاب الحق بالثقة والطمأنينة واليقين ، وأن يعلق قلوبهم وأبصارهم بالقدرة القاهرة والقدر النافذ ، وبالسلطان الحق الأصيل فى هذا الوجود ، وأن يطلق وجدانهم من التعلق بما يريده أو لا يريده الشياطين ! وأن يمضوا فى طريقهم يبنون الحق فى واقع الخلق ، بعد بنائه فى قلوبهم هم وفى حياتهم ، أما عداوة الشياطين ، وكيد الشياطين ، فليدعوهما للمشيئة المحيطة والقدر النافذ.

﴿ **ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون** ﴾.

استمتاع الجن بالإنس والإنس بالجن

قال تعالى :

﴿ ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم (١٢٨) وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ﴾[١].

بعد أن عرض شياطين الإنس والجن ، الذين قضوا الحياة يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً وخداعاً وإضلالاً ، ويقف بعضهم بمساندة بعض عدواً لكل نبى ، ويوحى بعضهم إلى بعض ليجادلوا المؤمنين فى ما شرع الله لهم من الحلال والحرام ؛ يعرضهم فى مشهد شاخص حَىٍّ ، حافل بالحوار والاعتراف والتأنيب والحكم والتعقيب ، فائض بالحياة التى تذخر بها مشاهد القيامة فى القرآن : ﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً** ... ﴾ .

إن المشهد يبدأ معروضاً فى المستقبل ، يوم يحشرهم جميعاً .. ولكنه يستحيل واقعاً للسامع يتراءى له مواجهة ، وذلك بحذف لفظة واحدة فى العبارة ، فتقدير الكلام ، ﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً** ﴾ فيقول : ﴿ **يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس** .. ﴾ ولكن حذف كلمة - يقول - ينتقل بالتعبير المصور نقلة بعيدة ، ويحيل السياق من مستقبل يُنتظَر إلى واقع يُنظَر ! وذلك من خصائص التصوير القرآنى العجيب .

فلنتابع المشهد الشاخص المعروض :

---

(١) الأنعام : ١٢٨ - ١٢٩ .

﴿ يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ﴾ !

استكثرتم من التابعين لكم من الإنس ، المستمعين لإيحائكم ، المطيعين لوسوستكم ، المتبعين لخطواتكم .. وهو إخبار لا يقصد به الإخبار فالجن يعلمون أنهم قد استكثروا من الإنس ! إنما يقصد به تسجيل الجريمة – جريمة إغواء هذا الحشد الكبير الذى نكاد نلمحه فى المشهد المعروض !– ويقصد به التأنيب على هذه الجريمة التى تتجمع قرائنها الحية فى هذا الحشد المحشود ! لذلك لا يجيب الجن على هذا القول بشيء ، ولكن الأغرار الأغمار من الإنس المستخفين بوسوسة الشياطين يجيبون :

﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ربَّنا استمتعَ بعضُنا ببعضٍ وبلغنا أجَلَنا الّذى أجَّلْتَ لَنا ﴾ !

وهو جواب يكشف عن طبيعة الغفلة والخفة فى هؤلاء الأتباع ، كما يكشف عن مدخل الشيطان إلى نفوسهم فى دار الخداع .. لقد كانوا يستمتعون بإغواء الجن لهم وتزيينه ما كان يزين لهم من التصورات والأفكار ، ومن المكابرة والاستهتار ، ومن الإثم ظاهره وباطنه ! فمن منفذ الاستمتاع دخل إليهم الشيطان ! وكانت الشياطين تستمتع بهؤلاء الأغرار الأغفال .. كانت تستهويهم وتعبث بهم ، وتسخرهم لتحقيق هدف إبليس فى عالم الإنس ! وهؤلاء الأغرار المستخفون يحسبون أنه كان استمتاعاً متبادلاً ، وأنهم كانوا يمتعون فيه ويتمتعون ! ومن ثم يقولون :

﴿ ربنا استمتع بعضنا ببعض ﴾ !

ودام هذا المتاع طوال فترة الحياة ، حتى حان الأجل ، الذى يعلمون اليوم فقط أن الله هو الذى أمهلهـم إليـه ، وأنهم كانوا فى قبضته فى أثناء ذلك المتاع : ﴿ وبلغنا أجلنا الذى أجَّلْتَ لنا ﴾ !

عند ذلك يجيء الحكم الفاصل ، بالجزاء العادل :

﴿ قالَ النّارُ مَثواكُم خالدينَ فيها إلّا ما شاءَ اللهُ ﴾ .

فالنار مثابة ومأوى ، والمثوى للإقامة ، وهى إقامة الدَّوام .. ﴿ إلّا ما شاءَ اللهُ ﴾ لتبقى صورة المشيئة الطليقة هى المسيطرة على التصور الاعتقادى ، فطلاقة المشيئة الإلهية قاعدة من قواعد هذا التصور ، والمشيئة لا تنحبس ولا

تتقيد ، ولا فى مقرراتها هى : ﴿ إن رَبَّك حكيم عليم ﴾ ..

يمضى قدره بالناس عن حكمة وعن علم ، ينفرد بهما الحكيم العليم .

وقبل استئناف الحوار لإتمام المشهد ، يتحول السياق للتعقيب على شطر المشهد المنتهى :

﴿ وكذلك نُوَلِّى بعضَ الظالمين بعضاً بِمَا كانُوا يكسبُون ﴾ .

يمثل هذا الذى قام بين الجِنِّ والإنس من ولاء ، ويمثل ما انتهى إليه هذا الولاء من مصير .. بمثل ذلك ، وعلى قاعدته ، نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ، نجعل بعضهم أولياء بعض ، بحكم ما بينهم من تشابه فى الطبع والحقيقة ، وبحكم ما بينهم من اتفاق فى الوجهة والهدف ، وبحكم ما ينتظرهم من وحدة فى المصير .

وهو تقرير عام أبعد مدى من حدود المناسبة التى كانت حاضرة ، إنه يتناول طبيعة الولاء بين الشياطين من الإنس والجن عامة ، فإن الظالمين – وهم الذين يشركون بالله فى صورة من الصور – يتجمع بعضهم إلى بعض فى مواجهة الحق والهدى ، ويعين بعضهم بعضاً فى عداء كل نبى والمؤمنين به ، إنهم فضلاً على أنهم من طينة واحدة – مهما اختلفت الأشكال – هم كذلك أصحاب مصلحة واحدة ، تقوم على اغتصاب حق الربوبية على الناس ؛ كما تقوم على الانطلاق مع الهوى بلا قيد من حاكمية الله .

ونحن نراهم فى كل زمان كتلة واحدة يساند بعضهم بعضاً – على ما بينهم من خلافات وصراع على المصالح – إذا كانت المعركة مع دين الله ومع أولياء الله .. فبحكم ما بينهم من اتفاق فى الطينة ، واتفاق فى الهدف يقوم ذلك الولاء .. وبحكم ما يكسبون من الشر والإثم تتفق مصائرهم فى الآخرة على نحو ما رأينا فى المشهد المعروض !

وإننا لنشهد فى هذه الفترة – ومنذ قرون كثيرة – تجمعاً ضخماً لشياطين الإنس من الصليبيين والصهيونيين والوثنيين والشيوعيين – على اختلاف هذه المعسكرات فيما بينها – ولكنه تجمع موجه إلى الإسلام ، وإلى سحق طلائع حركات البعث الإسلامى فى الأرض كلها .

وهو تجمع رهيب فعلاً ، تجتمع له خبرة عشرات القرون فى حرب الإسلام ، مع القوى المادية والثقافية ، مع الأجهزة المُسَخَّرة فى المنطقة ذاتها للعمل وفق أهداف ذلك التجمع وخططه الشيطانية الماكرة .. وهو تجمع يتجلى فيه قول الله سبحانه : ﴿ **وكذلك نُوَلِّى بعضَ الظالمين بعضاً بِمَا كانُوا يكسبُون** ﴾ .

إرسال الرسل للجن والإنس

قال تعالى :

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾[1] .

وهو سؤال للتقرير والتسجيل ، فالله سبحانه يعلم ما كان من أمرهم فى الحياة الدنيا ، والجواب عليه إقرار منهم باستحقاقهم هذا الجزاء فى الآخرة .

والخطاب موجه إلى الجن كما هو موجه إلى الإنس .. فهل أرسل الله إلى الجن رسلاً منهم كما أرسل إلى الإنس ؟ الله وحده يعلم شأن هذا الخلق المغيب عن البشر ، ولكن النص يمكن تأويله بأن الجن كانوا يسمعون ما أنزل على الرسل ، وينطلقون إلى قومهم منذرين به ، كالذى رواه القرآن الكريم من أمر الجن فى سورة الأحقاف :

﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ

---

(١) الأنعام : ١٣٠ .

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

فجائز أن يكون السؤال والجواب للجن مع الإنس قائمين على هذه القاعدة ، والأمر كله مما اختص الله سبحانه بعلمه ، والبحث فيما وراء هذا القدر لا طائل وراءه !

وعلى أية حال ، فقد أدرك المسئولون من الجن والإنس ، أن السؤال ليس على وجهه ، إنما هو سؤال للتقرير والتسجيل ، كما أنه للتأنيب والتوبيخ ، فأخذوا فى الاعتراف الكامل ، وَسَجَّلُوا على أنفسهم استحقاقهم لما هم فيه : ﴿ **قالوا شهدنا على أنفسنا** ﴾ ، وهنا يتدخل المعقب على المشهد ليقول : ﴿ **وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾ .

وهو تعقيب لتقرير حقيقة حالهم فى الدنيا ، فقد غَرَّتهم هذه الحياة ، وقادهم الغرور إلى الكفر ، ثم ها هم أولاء يشهدون على أنفسهم به ، حيث لا تجدى المكابرة والإنكار .. فأى مصير أبأس من أن يجد الإنسان نفسه فى هذا المأزق ، الذى لا يملك أن يدفع عن نفسه فيه ، ولا بكلمة الإنكار ! ولا بكلمة الدفاع !

دخول كفرة الجن والإنس النار

قال تعالى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ

(١) الأحقاف : ٢٩ - ٣٢ .

رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾[1] .

ها نحن أولاء أمام مشهد هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً أو كذبوا بآياته ، وقد جاءتهم رسل ربهم من الملائكة يتوفونهم ، ويقبضون أرواحهم ، فدار بين هؤلاء وهؤلاء حوار :

﴿ **قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله** ﴾ ؟

أين دعاويكم التى افتريتم على الله ؟ وأين آلهتكم التى توليتم فى الدنيا ، وفتنتم بها عما جاءكم من الله على لسان الرسل ؟ أين هى الآن فى اللحظة الحاسمة التى تسلب منكم فيها الحياة ، فلا تجدون لكم عاصماً من الموت يؤخركم ساعة عن الميقات الذى أجّله الله ؟

ويكون الجواب هو الجواب الوحيد ، الذى لا معدى عنه ، ولا مغالطة فيه :

﴿ **قالوا ضلوا عنا** ﴾ !

غابوا عنا وتاهوا ! فلا نحن نعرف لهم مقراً ، ولا هم يسلكون إلينا طريقاً ! فما أضيع عبادًا لا تهتدى إليهم آلهتهم ، ولا تسعفهم فى مثل هذه اللحظة الحاسمة ! وما أخيب آلهة لا تهتدى إلى عبادها ، فى مثل هذا الأوان !

﴿ **وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾ .

---

(1) الأعراف : ٣٧ - ٣٨ .

﴿ **قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار ...** ﴾ .

انضموا إلى زملائكم وأوليائكم من الجن والإنس ؛ وهنا فى النار ؛ أليس إبليس هو الذى عصى ربه ؟ وهو الذى أخرج آدم من الجنة وزوجه ، وهو الذى أغوى من أغوى من أبنائه ، وهو الذى أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم فى النار ؟ فادخلوا إذن جميعاً ؛ ادخلوا سابقين ولاحقين ؛ فكلكم أولياء ، وكلكم سواء !

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق فى الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ، ويملى متبوعها لتابعها ، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنابز فيها :

﴿ **كُلَّمَا دَخَلَت أمةٌ لعنت أُختَها** ﴾ !

فما أبأسها نهاية تلك التى يلعن فيها الابن أباه ، ويتنكر فيها الولى لمولاه !

للجن قلوب وعيون وآذان

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[1] .

إن هؤلاء الكثيرين من الجن والإنس مخلوقون لجهنم ! و هم مهيئون لها ! فما بالهم كذلك ؟

هنالك اعتباران :

الاعتبار الأول : أنه مكشوف لعلم الله الأزلى أن هؤلاء الخلق صائرون إلى جهنم ، وهذا لا يحتاج إلى بروز العمل الذى يستحقون به جهنم إلى عالم

---

(١) الأعراف : ١٧٩ .

الواقع الفعلي لهم ، فعلم الله سبحانه شامل محيط غير متوقف على زمان ولا على حركة ينشأ بعدها الفعل فى عالم العباد الحادث .

والاعتبار الثانى : أن هذا العلم الأزلى - الذى لا يتعلق بزمان ولا حركة فى عالم العباد الحادث - ليس هو الذى يدفع هذه الخلائق إلى الضلال الذى تستحق به جهنم ، إنما هم كما تنص الآية :

﴿ لهم قلوبٌ لا يَفْقَهُـون بِهـا ولـهـم أعينٌ لا يُبصِرُون بها ولهم آذانٌ لا يسمعُون بها ﴾ .

فهم لم يفتحوا القلوب التى أعطوها ليفقهوا - ودلائل الإيمان والهدى حاضرة فى الوجود وفى الرسالات تدركها القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة - وهم لم يفتحوا أعينهم ليبصروا آيات الله الكونية ، ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة . لقد عَطَّلوا هذه الأجهزة التى وهبوها ولم يستخدموها .. لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون :

﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ .

والذين يغفلون عما حولهم من آيات الله فى الكون وفى الحياة ، والذين يغفلون عما يمر بهم من الأحداث والعِبَر فلا يرون فيها يد الله .. أولئك كالأنعام بل هم أضل .. فللأنعام استعدادات فطرية تهديها ، أما الجن والإنس فقد زودوا بالقلب الواعى والعين المبصرة والأذن الملتقطة ، فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا ، إذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ، ولا تلتقط أعينهم مشاهدها ودلالاتها ، ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإيحاءاتها فإنهم يكونون أَضَلُّ من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية ، ثم هم يكونون من ذرء جهنم ! يجرى بهم قدر الله إليها وفق مشيئته حين فطرهم باستعداداتهم تلك ، وجعل قانون جزائهم هذا ، فكانوا - كما هم فى علم الله القديم - حصب جهنم منذ كانوا !

□ * □ * □ * □

الجن جند من جنود سليمان

قال تعالى :

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[1].

فهذا هو موكب سليمان عليه السلام محشود محشور ، يتألف من الجن والإنس والطير ، والإنس معروفون ، أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم فى القرآن ، وهو أنه خلقهم من مارج من نار ، أى من لهيب متموج من النار ، وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ - الكلام عن إبليس أو الشيطان وإبليس من الجن - وأنهم قادرون على الوسوسة فى صدور الناس بالشر عادة والإيحاء لهم بالمعصية - ولا ندرى كيف - وأن منهم طائفة آمنت برسول الله (ﷺ) ولم يرهم هو أو يعرف منهم إيمانهم ولكن أخبره الله بذلك إخباراً : ﴿ **قلْ أُوحِيَ إلَيَّ أنَّهُ استمعَ نفرٌ من الجنِّ فقالوا إنَّا سمِعنا قرآنا عجباً • يهدى إلى الرشد فآمنَّا بهِ ولنْ نشركَ بربِّنا أحداً** ﴾[2] ونعرف أن الله سَخَّرَ طائفة منهم لسليمان عليه السلام يبنون له المحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة للطعام ، ويغوصون له فى البحر ، ويأتمرون بأمره بإذن الله ، ومنهم هؤلاء الذين يظهرون هنا فى موكبه مع إخوانهم من الإنس والطير .

ونقول : إن الله سَخَّرَ لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير كما سَخَّرَ له طائفة من الإنس ، وكما أنه لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جنداً لسليمان عليه السلام إذ أن مُلْكَهُ لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات - فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مُسَخَّرين له ، إنما كانت طائفة من كل أمة على السواء .

ونستند فى مسألة الجن إلى أن إبليس وذريته من الجن كما قال القرآن ..

---

(١) النمل : ١٧ . (٢) الجن : ١ - ٢ .

﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلَّا إبليس كان من الجن فَفَسَقَ عن أمر ربه ..** ﴾[1].

وقال فى سورة « الناس » : ﴿ **الذى يوسوس فى صدور الناس ◦ من الجنَّةِ والناس** ﴾[2].. وهؤلاء كانوا يزاولون الإغواء والشر والوسوسة للبشر فى عهد سليمان ، وما كانوا ليزاولوا هذا وهم مسخرون له مقيدون بأمره ، وهو نبى يدعو إلى الهدى ، فالمفهوم إذن أن طائفة من الجن هى التى كانت مسخرة له .

ونستند فى مسألة الطير إلى أن سليمان عليه السلام حين تفقد الطير علم بغيبة الهدهد ، ولو كانت جميع الطيور مُسَخَّرة له ، محشورة فى موكبـه ، ومنها جميع الهداهد ، ما استطاع أن يتبين غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد فضلاً عن بلايين الطير ، ولما قال : مالى لا أرى الهدهد ؟ فهو إذن هدهد خاص بشخصه وذاته ، وقد يكون هو الذى سُخِّر لسليمان من أمة الهداهد ، أو يكون صاحب النوبة فى ذلك الموكب من المجموعة المحدودة العدد من جنسه ، ويعين على هذا ما ظهر من أن ذلك الهدهد موهوب إدراكاً خاصاً ليس من نوع إدراك الهداهد ولا الطير بصفة عامة ، ولابد أن هذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التى سُخِّرَت لسليمان ، لا لجميع الهداهد وجميع الطيور ، فإن نوع الإدراك الذى ظهر من ذلك الهدهد الخاص فى مستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من الناس !

حُشِرَ لسليمان عليه السلام جنوده من الجن والإنس والطير ، وهو موكب عظيم ، وحشد كبير ، يجمع أوله على آخره ﴿ **فهم يوزعون** ﴾ حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى ، فهو حشد عسكرى منظم ، يطلق عليه اصطلاح الجنود إشارة إلى الحشد والتنظيم .

لقد سار الموكب ، موكب سليمان من الجن والإنس والطير ، فى ترتيب ونظام ، يجمع آخره على أوله ، وتضم صفوفه ، وتتلاءم خُطاه ، حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة :

---

(١) الكهف : ٥٠ . (٢) الناس : ٥ - ٦ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[1].

أدخلنى برحمتك .. فهو يعلم أن الدخول فى عباد الله الصالحين ، رحمة من الله ، تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح ، فيسلك فى عداد الصالحين ، يعلم هذا ، فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالكين فى هذا الرعيل ، يضرع إلى ربه وهو النبى الذى أنعم الله عليه وسخر له الجن والإنس والطير ، غير آمن مكر الله حتى بعد أن اصطفاه ، خائفاً أن يقصر به عمله ، وأن يقصر به شكره .. وكذلك تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته والتشوق إلى رضاه ورحمته فى اللحظة التى تتجلى فيها نعمته كما تجلت ، والنملة تقول وسليمان عليه السلام يدرك عنها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه .

قوة الذى عنده علم من الكتاب أقوى من قدرة الجن

قال تعالى : ﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا

---

(١) النمل : ١٨ - ١٩ .

﴿ مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[1].

ترى ما الذى قصد إليه سليمان عليه السلام من استحضار عرشها قبل مجيئها مُسْلِمَةً مع قومها ؟ نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التى تؤيده ، لتؤثر فى قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله ، والإذعان لدعوته .

وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هذه ، وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح إلى الظهر فيما يروى ، فاستطول سليمان عليه السلام هذه الفترة واستبطأها – فيما يبدو – فإذا الذى عنده علم الكتاب يعرض أن يأتى به فى غمضة عين قبل أن يرتد إليه طرفه ، ولا يذكر اسمه ، ولا الكتاب الذى عنده علم منه ، إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال بالله ، موهوب سراً من الله يستمد به من القوة الكبرى التى لا تقف لها الحواجز والابعاد ، وهو أمر يشاهد أحياناً على أيدى بعض المتصلين ، ولم يكشف سره ولا تعليله ، لأنه خارج عن مألوف البشر فى حياتهم العادية ، وهذا أقصى ما يقال فى الدائرة المأمونة التى لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات !

ولقد جرى بعض المفسرين وراء قوله : ﴿ **عنده علم من الكتاب** ﴾ فقال بعضهم : إنه التوراة . وقال بعضهم : إنه كان يعرف اسم الله الأعظم . وقال بعضهم غير هذا وذاك ، وليس فيما قيل تفسير ولا تعليل مستيقن . والأمر أيسر من هذا كله حين ننظر إليه بمنظار الواقع ، فكم فى هذا الكون من أسرار لا نعلمها ، وكم فيه من قوى لا نستخدمها . وكم فى النفس البشرية من أسرار كذلك وقوى لا نهتدى إليها ، فحيثما أراد الله هدى من يريد إلى أحد هذه الأسرار وإلى واحدة من هذه القوى فجاءت الخارقة التى لا تقع فى مألوف الحياة ، وجرت بإذن الله وتدبيره وتسخيره ، حيث لا يملك من لم يرد الله أن يجريها على يديه أن يجريها .

وهذا الذى عنده علم من الكتاب ، كانت نفسه مهيأة بسبب ما عنده

---

(١) النمل : ٣٨ - ٤٠ .

من العلم ، أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التي تتم بها تلك الخارقة التي تمت على يده ، لأن ما عنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيئه للتلقى ، ولاستخدام ما وهبه الله من قوى وأسرار .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفسه عليه السلام[1] ونحن نرجح أنه غيره ، فلو كان هو لأظهره السياق باسمه ، ولما أخفاه ، والقصة عنه ، ولا داعى لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر . وبعضهم قال : إن اسمه آصف ابن برخيا ولا دليل عليه .

الجن تعمل بين يدي سليمان

قال تعالى :
﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ

---

(١) والذى أراه صواباً أن الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام والذى يؤكد ما ذهبنا إليه ، أنه لو لم يكن سليمان عليه السلام أقوى من الجن لما استطاع أن يحكمهم بدليل أنه كان يستخدمهم طوعاً أو كرهاً بحيث أنه لما مات ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فتبين بعد ذلك أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب لما لبثوا فى العذاب المهين ، إذن كانت هذه الوقفة تذكيراً للجن واستعراض عضلات حيث أراد أن يريهم ضعفهم أمامه فطلب منهم – أى من العفاريت – من يستطيع منكم أن يأتى بعرش ملكة سبأ فقال أكثر العفاريت قوة : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك هذا الذى أنت جالس فيه للحكم أى قبل انقضاءه ، فقال له : هذا كل ما تستطيع ؟ فأنا بقدرة الله وبما أعطانى من كتاب أننى أملك الجن والإنس والطير وتسخيرهم فيما أشاء أعطانى المقدرة على إحضار هذا العرش بغمضة عين فلما أحضره سليمان وبهت العفريت من هذه القوة قال سليمان عليه السلام لما رآه مستقراً عنده : ﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ ...

إذن : هذا امتحان من الله سبحانه وتعالى ، وابتلاء ضخم مخيف ، ليرى هل يشكر على هذه النعمة ، أم يأخذه الكبر والعظمة والتمرد والعصيان فيكفر .

قال الشيخ حسنين مخلوف فى « صفوة البيان » ص ٤٨٤ : قيل : هو سليمان عليه السلام نفسه ، قال ذلك للعفريت للدلالة على شرف العلم وفضله وأن هذه الكرامة كانت بسببه . ا هـ .

وقال محمد سليمان الأشقر فى « زبدة التفسير » ص ٤٩٨ قيل هو سليمان عليه السلام نفسه ، كأن سليمان عليه السلام استبطأ ما قاله العفريت ، فقال له تحقيراً لمقدرته أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، والمراد بالطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر ﴿ فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ﴾ أى ليختبرنى أأشكر بذلك وأعترف أنه من فضله أم أكفر بترك الشكر وعدم القيام به ؟ اهـ .

رَبِّهِۦ ۚ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[1].

وتسخير الريح لسليمان عليه السلام تتكاثر حوله الروايات ، وتبدو ظلال الإسرائيليات واضحة فى تلك الروايات – وإن تكن كتب اليهود الأصلية لم تذكر شيئاً عنها – والتحرج من الخوض فى تلك الروايات أولى ، والاكتفاء بالنص القرآنى أسلم ، مع الوقوف به عند ظاهر اللفظ لا نتعداه ، و منه يستفاد أن الله سخر الريح لسليمان عليه السلام ، وجعل غدوها أى توجهها غادية إلى بقعة معينة – ذكر فى سورة الأنبياء أنها الأرض المقدسة – يستغرق شهراً ، ورواحها أى انعكاس اتجاهها فى الرواح يستغرق شهراً كذلك ، وفق مصلحة تحصل من غدوها ورواحها ، يدركها سليمان عليه السلام ويحققها بأمر الله ، ولا نملك أن نزيد هذا إيضاحاً حتى لا ندخل فى أساطير لا ضابط لها ولا تحقيق .

﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ .

والقطر النحاس ، وسياق الآيات يشير إلى أن هذا كان معجزة خارقة كإلانة الحديد لداود عليه السلام ، وقد يكون ذلك بأن فَجَّرَ الله له عيناً بركانية من النحاس المذاب من الأرض ، أو بأن ألهمه الله إذابة النحاس حتى يسيل ويصبح قابلاً للصب والطَّرْقِ ، وهو فضل من الله كبير .

﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ .

وكذلك سَخَّرَ له طائفة من الجن يعملون بأمره بإذن ربه ، والجن كل مستور لا يراه البشر ، وهناك خلق سماهم الله الجن ولا نعرف نحن من أمرهم شيئاً إلّا ما ذكره الله عنهم ، وهو يذكر هنا أن الله سخر طائفة منهم لنبيه سليمان عليه السلام فمن عصى منهم ناله عذاب الله :

﴿ ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ .

---

(١) سبأ : ١٢ – ١٣ .

ولعل هذا التعقيب - قبل الانتهاء من قصة التسخير - يذكر على هذا النحو لبيان خضوع الجن لله ، وكان بعض المشركين يعبدهم من دون الله ، وهم مثلهم معرضون للعقاب عندما يزيغون عن أمر الله .

وهم مسخرون لسليمان عليه السلام :

﴿ **يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات** ﴾ .

والمحاريب من أماكن العبادة ، والتماثيل الصور من نحاس وخشب وغيره ، والجوابى جمع جابية وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء ، وقد كانت الجن تصنع لسليمان عليه السلام جفاناً كبيرة للطعام تشبه الجوابى ، وتصنع له قدوراً ضخمة للطبخ راسية لضخامتها ، وهذه كلها نماذج مِمَّا سَخَّر الله الجن لسليمان عليه السلام لتقوم له به حيث شاء بإذن الله ، وكلها أمور خارقة لا سبيل إلى تصورها أو تعليلها إلَّا بأنها خارقة من صنع الله ، وهذا هو تفسيرها الواضح الوحيد .

ويختم هذا بتوجيه الخطاب إلى آل داود : ﴿ **اعملوا آل داود شكراً** ﴾ .

سَخَّرنا لكم هذا وذلك فى شخص داود وشخص سليمان عليهما السلام فاعملوا ياآل داود شكراً لله ، لا للتباهى والتعالى بما سخره الله ، والعمل الصالح شكر لله كبير .

الجن لا تعلم الغيب

قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾(١) .

وقد روى أنه كان متكئاً على عصاه حين وافاه أجله ، والجن تروح وتجيء مسخرة فيما كلفها إيَّاه من عمل شاق شديد ، فلم تدرك أنه مات ، حتى

---

(١) سبأ : ١٤ .

جاءت دابة الأرض ، قيل إنها الأرضة ، التى تتغذى بالأخشاب ، وهى تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراهة فظيعة ، فى الأماكن التى تعيش فيها ، وفى صعيد مصرى قرى تقيم منازلها دون أن تضع فيها قطعة خشب واحدة خوفاً من هذه الحشرة التى لا تبقى على المادة الخشبية ولا تذر ، فلما نخرت عصا سليمان عليه السلام لم تحمله فخرَّ على الأرض ، وحينئذ فقط علمت الجن موته ، وعندئذ ﴿ **تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** ﴾ .

فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس ، هؤلاء هم سخرة لعبد من عباد الله ، وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب ، وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد !

عبادة الناس للجن

قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[1].

فهؤلاء هم الملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ، أو يتخذونهم عنده شفعاء ، هؤلاء هم يواجهون بهم ، فيسبحون الله تنزيهاً له من هذا الادعاء ، ويتبرءون من عبادة القوم لهم ، فكأنما هذه العبادة كانت باطلاً أصلاً ، وكأنما لم تقع ولم تكن لها حقيقة ، إنما هم يتولون الشيطان ، إما بعبادته والتوجه إليه ، وإما بطاعته فى اتخاذ شركاء من دون الله ، وهم حين عبدوا الملائكة إنما كانوا يعبدون الشيطان ! ذلك إلى أن عبادة الجن عُرِفَت بين العرب ، وكان منهم فريق يتوجه إلى الجن بالعبادة أو الاستعانة : ﴿ **بل كانوا يعبدون الجنَّ أكثرهم بهم مؤمنون** ﴾ ، ومن هنا تجىء علاقة قصة

---

(١) سبأ : ٤٠ - ٤١ .

سليمان عليه السلام والجن بالقضايا والموضوعات التى تعالجها السورة ، على طريقة سياقة القصص فى القرآن الكريم .

القرين من الجن

قال تعالى :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾(1).

إلى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾(2).

وقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾(3).

وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا

---

(1) فصلت : ٢٥ . (2) فصلت : ٢٩ . (3) النساء : ٣٨ .

ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٦) ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾[1].

يقول الله سبحانه للملكين الحافظين : السائق والشهيد : ﴿ **ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد * مناع للخير معتد مريب * الذى جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه فى العذاب الشديد** ﴾ .. وذكر هذه النعوت يزيد فى حرج الموقف وشدته فهو دلالة غضب الجبار القهار فى الموقف العصيب الرهيب ، وهى نعوت قبيحة مستحقة لتشديد العقوبة : كفار ، عنيد ، مناع للخير ، معتد ، مريب . الذى جعل مع الله إلهاً آخر . وتنتهى بتوكيد الأمر الذى لا يحتاج إلى توكيد : ﴿ **فألقياه فى العذاب الشديد** ﴾ بياناً لمكانه من جهنم التى بدأ الأمر بإلقائه فيها .

عندئذ يفزعُ قرينه ويرتجف ، ويبادر إلى إبعاد ظل التهمة عن نفسه ، بما أنه كان مصاحباً له وقريناً : ﴿ **قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد** ﴾ ، وربما كان القرين هنا غير القرين الأول الذى قدم السِّجلَّات ، ربما كان هو الشيطان المُوكَّل به ليغويه ، وهو يتبرأ من إطغائه ، ويقرر أنه وجده ضالاً من عند نفسه ، فاستمع لغوايته ! وفى القرآن مشاهد مشابهة يتبرأ فيها القرين الشيطانى من القرين الإنسانى على هذا النحو .

هنا يجىء القول الفصل ، فينهى كل قول : ﴿ **قال لا تختصموا لَدَىَّ وقد قَدَّمْتُ إليكم بالوعيد * ما يبدل القول لَدَىَّ وما أنا بظلام للعبيد** ﴾ .. فالمقام ليس مقام اختصام ، وقد سبق الوعيد محدداً جزاء كل عمل ، وكل شىء مسجل لا يبدل ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل ، ولا يظل أحد ، فالمجازى هو الحكم العدل .

وقال تعالى :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا

---

(١) ق : ٢٣ - ٢٨ .

فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[1].

والعشى كلال البصر عن الرؤية ، وغالباً ما يكون عند مواجهة الضوء الساطع الذى لا تملك العين أن تحدق فيه ، أو عند دخول الظلام و كلال العين الضعيفة عن التبين خلاله ، وقد يكون ذلك لمرض خاص ، والمقصود هنا هو العماية والإعراض عن تذكر الرحمن واستشعار وجوده ورقابته فى الضمير .

﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نُقَيِّض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ .

وقد قضت مشيئة الله فى خلقة الإنسان ذلك ، واقتضت أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه ، فيلزمه ، ويصبح له قرين سوء يوسوس له ، ويزين له السوء ، وهذا الشرط وجوابه هنا فى الآية يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة ، التى تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب ، كما قضاه الله فى علمه .

ووظيفة قرناء السوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله ، بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون :

﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ .

وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين ، أن يصده عن السبيل الواحدة القاصدة ، ثم لا يدعه يفيق ، أو يتبين الضلال فيثوب ، إنما يوهمه أنه سائر فى الطريق القاصد القويم ! حتى يصطدم بالمصير الأليم .

والتعبير بالفعل المضارع : **﴿ ليصدونهم ﴾** .. **﴿ ويحسبون ﴾** .. يصور العملية قائمة مستمرة معروضة للأنظار يراها الآخرون ، ولا يراها الضالون السائرون إلى الفخ وهم لا يشعرون .

---

(١) الزخرف : ٣٦ - ٣٩ .

ثم تفاجئهم النهاية وهم سادرون :

﴿ **حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين** ﴾ !

وهكذا ننتقل فى ومضة من هذه الدنيا إلى الآخرة ، ويطوى شريط الحياة السادرة ، ويصل العمى – الذين يعشون عن ذكر الرحمن – إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار ، هنا يفيقون كما يفيق المخمور ، ويفتحون أعينهم بعد العشى والكلال ، وينظر الواحد منهم إلى قرين السُّوء الذى زَيَّنَ له الضلال ، وأوهمه أنه الهدى ! وقاده فى طريق الهلاك ، وهو يلوح له بالسلامة ينظر إليه فى حنق يقول : ﴿ **ياليت بينى وبينك بعد المشرقين** ﴾ ! ياليته لم يكن بيننا لقاء ، على هذا البعد السحيق !

ويعقب القرآن على حكاية قول القرين الهالك للقرين بقوله :

﴿ **فبئس القرين** ﴾ ..!

وتسمع كلمة التبئيس الساحقة لهذا وذاك عند إسدال الستار على الجميع :

﴿ **ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون** ﴾ !

فالعذاب كامل لا تخففه الشركة ، ولا يتقاسمه الشركاء فيهون !

القرين من الإنس

قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾[1].

---

(١) الصافات : ٥٠ – ٥٧ .

يقص أحدهم على إخوانه طرفاً مما وقع له ! لقد كان صاحبه وقرينه ذاك يكذب باليوم الآخر ، ويسائله فى دهشة : أهو من المصدقين بأنهم مبعوثون فمحاسبون بعد إذ هم تراب وعظام ؟

وبينما هو ماضٍ فى قصته يعرضها فى سمره مع إخوانه ، يخطر له أن يتفقد صاحبه وقرينه ذاك ليعرف مصيره ، وهو يعرف بطبيعة الحال أنه قد صار إلى الجحيم ، فيتطلع ويدعو إخوانه إلى التطلع معه :

﴿ **قال هل أنتم مُطَّلِعُون * فاطَّلَعَ فرآه فى سواء الجحيم** ﴾ .

عندئذ يتوجه إلى قَرينه الذى وجده فى وسط الجحيم ، يتوجه إليه ليقول له : ياهذا ، لقد كدت توردنى موارد الردى بوسوستك ، لولا أن الله قد أنعم على فعصمنى من الاستماع إليك .

كل كافر يلحق كفرة الجن والإنس فى النار

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٧) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾[1] .

فالوالدان مؤمنان ، والولد العاق يجحد برَّهُمَا أول ما يجحد ، فيخاطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح : ﴿ **أف لكما** ﴾ ، ثم يجحد الآخرة بالحجة الواهية : ﴿ **أتعدانِنِى أنْ أُخرَجَ وقد خلت القرون من قبلى** ﴾ أى ذهبوا ولم يعد منهم أحد ، والساعة مقدرة إلى أجلها ، والبعث جملة بعد انتهاء أجل الحياة الدنيا ، ولم يقل أحد إنه تجزئة ، يبعث جيل مضى فى عهد جيل يأتى ، فليست

---

(١) **الأحقاف** : ١٧ - ١٨.

لعبة وليست عبثاً ، إنما هو الحساب الختامى للرحلة كلها بعد انتهائها !

والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر ، ويفزعان بما يقوله الولد العاق لربه ولهما ، ويرتعش حسهما لهذا التهجم والتطاول ، ويهتفان به : ﴿ **وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وَعْدَ الله حَقٌّ** ﴾ ، ويبدو فى حكاية قولهما الفزع من هول ما يسمعان ، بينما هو يصر على كفره ، ويلج فى جحوده : ﴿ **فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ .

هنا يعاجله الله بمصيره المحتوم :

﴿ **أولئك الذين حق عليهم القول فى أُمَم قد خَلَتْ من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** ﴾ .

والقول الذى حق على هذا وأمثاله هو العقاب الذى ينال الجاحدين المكذبين ، وهم كثير ، خلت بهم القرون من الجن والإنس ، حسب وعيد الله الصادق الذى لا يخلف ولا يتخلف : ﴿ **إنهم كانوا خاسرين** ﴾ ، وأية خسارة أكبر من خسارة الإيمان واليقين فى الدنيا ، ثم خسارة الرضوان والنعيم فى الآخرة ، ثم العذاب الذى يحق على الجاحدين المنحرفين ؟

مقالة النفر من الجن

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ

فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

هذه قصة النفر من الجن الذين استمعوا لهذا القرآن ، فتنادوا بالإنصات ، واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله وَيُبَشِّرُونَهم بالمغفرة والنجاة ، ويحذرونهم الإعراض والضلال ، سياقة الخبر فى هذا المجال ، بهذه الصورة ، وتصوير مس القرآن لقلوب الجن هذا المس الذى يتمثل فى قولهم : ﴿ **أنصتوا** ﴾ عندما طرق أسماعهم ، يتمثل فيما حكوه لقومهم عنه ، وفيما دعوهم إليه ، كل هذا من شأنه أن يحرك قلوب البشر ، الذين جاء القرآن لهم فى الأصل ، وهو إيقاع مؤثر ولاشك ، يلفت هذه القلوب لفتة عنيفة عميقة ، وفى الوقت ذاته تجىء الإشارة إلى الصلة بين كتاب موسى عليه السلام وهذا القرآن على لسان الجن ، فتعلن هذه الحقيقة التى يدركها الجن ويغفل عنها البشر ، ولا يخفى ما فى هذه اللفتة من إيحاء عميق متفق مع ما جاء فى السورة .

كذلك ما يرد فى كلام الجن من الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح ، ودلالته على قدرة الله الظاهرة فى خلق السموات والأرض ، الشاهدة بقدرته على الإحياء والبعث ، وهى القضية التى يجادل فيها البشر وبها يجحدون .

وبمناسبة البعث يعرض مشهداً من مشاهد القيامة ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار** ﴾ .

ومقالة النفر من الجن – مع خشوعهم عند سماع القرآن – تتضمن أسس الاعتقاد الكامل : تصديق الوحى ، ووحدة العقيدة بين التوراة والقرآن ، والاعتراف بالحق الذى يهدى إليه ، والإيمان بالآخرة وما ينتهى إلى المغفرة وما ينتهى إلى العذاب من الأعمال ، والإقرار بقوة الله وقدرته على الخلق وولايته وحده للعباد ، والربط بين خلق الكون وإحياء الموتى ، وهى الأسس التى تتضمنها السورة كلها ، والقضايا التى تعالجها فى سائر أشواطها كلها جاءت على لسان النفر من الجن ، من عالم آخر غير عالم الإنسان .

---

(1) **الأحقاف : ٢٩ - ٣٢ .**

ويحسن قبل أن نستعرض هذه المقالة أن نقول كلمة عن الجن وعن الحادثة .

إن ذكر القرآن لحادث صَرْفِ نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبى (ﷺ) وحكاية ما قالوا وما فعلوا — هذا وحده كاف بذاته لتقرير وجود الجن ، ولتقرير وقوع الحادث ، ولتقرير أن الجن هؤلاء يستطيعون أن يستمعوا للقرآن بلفظه العربى المنطوق كما يلفظه رسول الله (ﷺ) ولتقرير أن الجن خلق قابلون للإيمان وللكفران ، مستعدون للهدى وللضلال ، وليس هنالك من حاجة إلى زيادة تثبيت أو توكيد لهذه الحقيقة ، فما يملك إنسان أن يزيد الحقيقة التى يقررها الله سبحانه ثبوتاً .

ولكنا نحاول إيضاح هذه الحقيقة فى التصور الإنسانى .

إن هذا الكون من حولنا حافل بالأسرار ، حافل بالقوى والخلائق المجهولة لنا كنهاً وصفة وأثراً ، ونحن نعيش فى أحضان هذه القوى والأسرار ، نعرف منها القليل ، ونجهل منها الكثير ، وفى كل يوم نكشف بعض هذه الأسرار ، وندرك بعض هذه القوى ، ونتعرف إلى بعض هذه الخلائق تارة بذواتها ، وتارة بصفاتها ، وتارة بمجرد آثارها فى الوجود من حولنا .

ونحن ما نزال فى أول الطريق ، طريق المعرفة لهذا الكون ، الذى نعيش نحن وآباؤنا وأجدادنا ويعيش أبناؤنا وأحفادنا ، على ذرة من ذراته الصغيرة ؛ هذا الكوكب الأرضى الذى لا يبلغ أن يكون شيئاً يذكر فى حجم الكون أو وزنه !

وما عرفناه اليوم — ونحن فى أول الطريق — يعد بالقياس إلى معارف البشرية قبل خمسة قرون فقط عجائب أضخم من عجيبة الجن ، ولو قال قائل للناس قبل خمسة قرون عن شيء من أسرار الذرة التى نتحدث عنها اليوم لظنوه مجنوناً ، أو لظنوه يتحدث عما هو أشد غرابة من الجن قطعاً !

ونحن نعرف ونكشف فى حدود طاقتنا البشرية ، المعدة للخلافة فى هذه الأرض ، ووفق مقتضيات هذه الخلافة ، وفى دائرة ما سَخَّره الله لنا ليكشف لنا عن أسراره ، وليكون لنا ذلـولاً ، كيما نقوم بواجب الخلافة فى الأرض ، ولا تتعدى معرفتنا وكشوفنا فى طبيعتها وفى مداها — مهما امتد بنا الأجل —

أى بالبشرية – ومهما سُخِّر لنا من قوى الكون وكُشِفَ لنا من أسراره – لا تتعدى تلك الدائرة ، دائرة ما نحتاجه للخلافة فى هذه الأرض ، وفق حكمة الله وتقديره .

وسنكشف كثيراً ، وسنعرف كثيراً ، وستتفتح لنا عجائب من أسرار هذا الكون وطاقاته ، مِمَّا قد تعتبر أسرار الذرة بالقياس إليه لعبة أطفال ! ولكننا سنظل فى حدود الدائرة المرسومة للبشر فى المعرفة ، وفى حدود قول الله سبحانه : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلَّا قليلاً** ﴾ قليلاً بالقياس إلى ما فى هذا الوجود من أسرار وغيوب لا يعلمها إلا خالقه وَقَيُّومه ، وفى حدود تمثيله لعلمه غير المحدود ، ووسائل المعرفة البشرية المحدودة بقوله : ﴿ **ولو أنَّمَا فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله** ﴾ .

فليس لنا والحالة هذه أن نجزم بوجود شيء أو نفيه ، وبتصوره أو عدم تصوره ، من عالم الغيب المجهول ، ومن أسرار هذا الوجود وقواه ، لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلى أو تجاربنا المشهودة ، ونحن لم ندرك بعد كل أسرار أجسامنا وأجهزتها وطاقاتها ، فضلاً على إدراك أسرار عقولنا وأرواحنا !

وقد تكون هنالك أسرار ليست داخلة فى برنامج ما يُكْشَف لنا عنه أصلاً ، وأسرار ليست داخلة فى برنامج ما يُكْشَف لنا عن كنهه ، فلا يُكْشَف لنا إلا عن صفته أو أثره أو مجرد وجوده ، لأن هذا لا يفيدنا فى وظيفة الخلافة فى الأرض .

فإذا كَشَفَ الله لنا عن القدر المقسوم لنا من هذه الأسرار والقوى ، عن طريق كلامه – لا عن طريق تجاربنا ومعارفنا الصادرة من طاقتنا الموهوبة لنا من لدنه أيضاً – فسبيلنا فى هذه الحالة أن نتلقى هذه الهبة بالقبول والشكر والتسليم ، نتلقاها كما هى فلا نزيد عليها ولا ننقص منها ، لأن المصدر الوحيد الذى نتلقى عنه مثل هذه المعرفة لم يمنحنا إلا هذا القدر بلا زيادة ، وليس هنالك مصدر آخر نتلقى عنه مثل هذه الأسرار !

ومن هذا النص القرآنى ، ومن نصوص سورة الجن ، والأرجح أنها تعبير عن الحادث نفسه ، ومن النصوص الأخرى المتناثرة فى القرآن عن الجن ، ومن

الآثار النبوية الصحيحة عن هذا الحادث ، نستطيع أن ندرك بعض الحقائق عن الجن ، ولا زيادة .

روايات حادث استماع الجن للقرآن

فأما الحادث الذى تشير إليه هذه الآيات ، كما تشير إليه سورة الجن كلها على الأرجح ، فقد وردت فيه روايات متعددة نثبت أصحها :

أخرج البخارى بإسناده عن مسدد ، ومسلم عن شيبان بن فروخ عن أبى عوانة ، وروى الإمام أحمد فى مسنده قال : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة وقال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه « دلائل النبوة » : أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا إسماعيل القاضى ، أخبرنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال :

« ما قرأ رسول الله (ﷺ) على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله (ﷺ) فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شىء حدث ، فاضربوا فى مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فانطلقوا يضربون فى مشارق الأرض ومغاربها ، يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك النفر الذى توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله (ﷺ) وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم : وقالوا : ياقومنا ﴿ **إنا سمعنا قرآناً عجباً ٭ يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً** ﴾ ، وأنزل الله على نبيه (ﷺ) : ﴿ **قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن** ﴾ ، وإنما أوحى إليه قول الجن » .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى - بإسناده - عن علقمة ، قال : قلت

لابن مسعود : هل صحب النبى (ﷺ) منكم أحد ليلة الجن ؟ قال : ما صحبه أحد منا ولكنا كنا معه ذات ليلة ، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب ، فقلنا : استطير ، أو اغتيل ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا فإذا هو جاء من قبل حراء ، فقلنا : يارسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فقال :

« أتانى داعى الجن فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن » .

قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال :

« لكم كل عظم ذكر اسم الله تعالى عليه ، يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم » .

فقال (ﷺ) : « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم » .

وقال : ساق ابن إسحاق – فيما رواه ابن هشام فى السيرة – خبر النفر من الجن بعد خبر خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، بعد موت عمه أبى طالب ، واشتداد الأذى عليه وعلى المسلمين فى مكة ، ورد ثقيف له رداً قبيحاً ، وإغرائهم السفهاء والأطفال به ، حتى أدموا قدميه (ﷺ) بالحجارة ، فتوجه إلى ربه بذلك الابتهال المؤثر العميق الكريم :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »(1).

قال : ثم إن رسول الله (ﷺ) انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة ، حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى ، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى ، وهم – فيما

---

(1) أخرجه الطبرى فى تاريخه ٣٤٥/٢ – ٣٤٦ ، و « البداية » ١٣٦/٣ وسيأتى تخريجه كاملاً فيما بعد .

ذكر لى — سبعة نفر من جن نصيبين ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته وَلَّوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا ، فَقَصَّ الله خبرهم عليه (ﷺ) ، قال الله عز وجل : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **وَيُجِرْكُم من عذاب أليم** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **قل أُوحِيَ إلَيَّ أنَّه استمعَ نفرٌ من الجنِّ** .. ﴾[2] إلى آخر القصة من خبرهم فى هذه السورة .

ويعقب ابن كثير فى التفسير على رواية ابن إسحاق بقوله : وهذا صحيح ، ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر ، فإن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء ، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور ، وخروجه (ﷺ) إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره ، والله أعلم .

وهناك روايات أخرى كثيرة ، ونحن نعتمد من جميع هذه الروايات الرواية الأولى عن ابن عباس ، لأنها هى التى تتفق تماماً مع النصوص القرآنية : ﴿ **قلْ أُوحِيَ إلَيَّ أنَّه استمعَ نفرٌ من الجنِّ** ﴾ ، وهى قاطعة فى أن الرسول (ﷺ) إنما علم بالحادث عن طريق الوحى ، وأنه لم ير الجن ولم يشعر بهم ، ثم إن هذه الرواية هى الأقوى من ناحية الإسناد والتخريج ، وتتفق معها فى هذه النقطة رواية ابن إسحاق ، كما يقويها ما عرفناه من القرآن من صفة الجن : ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ .

وفى هذا غناء فى تحقيق الحادث .

تدبير الله فى استماع الجن لرسول الله (ﷺ)

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ﴾[3] .

(١) الأحقاف : ٢٩ – ٣١ .   (٢) الجن : ١ .   (٣) الأحقاف : ٢٩ .

لقد كان إذن تدبيراً من الله أن يصرف هؤلاء النفر من الجن إلى استماع القرآن ، لا مصادفة عابرة ، وكان فى تقدير الله أن تعرف الجن نبأ الرسالة الأخيرة كما عرفت من قبل رسالة موسى ، وأن يؤمن فريق منهم وينجو من النار المعدة لشياطين الجن كما هى معدة لشياطين الإنس .

ويرسم النص مشهد هذا النفر - وهم ما بين ثلاثة وعشرة - وهم يستمعون إلى هذا القرآن ، ويصور لنا ما وقع فى حِسِّهم منه ، من الروعة والتأثر والرهبة والخشوع : ﴿ **فلما حضروه قالوا أنصتوا** ﴾ ، وتلقى هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع .

مسارعة الجن لإنذار قومهم

قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾[1].

وهذه كتلك تصور الأثر الذى انطبع فى قلوبهم من الإنصات للقرآن ، فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية ، فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم ، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه مالا تطيق السكوت عليه ، أو التلكؤ فى إبلاغه والإنذار به ، وهى حالة من امتلأ حسه بشىء جديد ، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غَلَّاب ، يدفعه دفعاً إلى الحركة به والاحتفال بشأنه ، وإبلاغه للآخرين فى جد واهتمام :

﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

وَلَّوا إلى قومهم مسارعين يقولون لهم : إنا سمعنا كتاباً جديداً أنزل من بعد موسى ، يصدق كتاب موسى فى أصوله ، فهم إذن كانوا يعرفون كتاب موسى عليه السلام ، فأدركوا الصلة بين الكتابين بمجرد سماع آيات من هذا القرآن ، قد لا يكون فيها ذكر لموسى ولا لكتابه ، ولكن طبيعتها تشى بأنها من ذلك

---

(١) الأحقاف : ٢٩ . (٢) الأحقاف : ٣٠ .

النبع الذى نبع منه كتاب موسى عليه السلام ، وشهادة هؤلاء الجن البعيدين - نسبياً - عن مؤثرات الحياة البشرية ، بمجرد تذوقهم لآيات من القرآن ، ذات دلالة وذات إيحاء عميق .

ثم عبروا عما خالج مشاعرهم منه ، وما أحست ضمائرهم فيه ، فقالوا عنه :

﴿ **يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم** ﴾ .

ووقع الحق والهدى فى هذا القرآن هائل ضخم ، لا يقف له قلب غير مطموس ، ولا تصمد له روح غير معاندة ولا مستكبرة ولا مشدودة بالهوى الجامح اللئيم ، ومن ثم لمس هذه القلوب لأول وهلة ، فإذا هى تنطق بهذه الشهادة ، وتعبر عما مسها منه هذا التعبير .

ثم مضوا فى نذارتهم لقومهم فى حماسة المقتنع المندفع ، الذى يحس أن عليه واجباً فى النذارة لابد أن يؤديه :

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(1) .

فقد اعتبروا نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغته من إنس وجن ، واعتبروا محمداً (ﷺ) داعياً لهم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن واستماع الثقلين له ، فنادوا قومهم : ﴿ **يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به** ﴾ .

وآمنوا كذلك بالآخرة ، وعرفوا أن الإيمان والاستجابة لله يكون معهما غفران الذنب والإجارة من العذاب ، فبشروا وأنذروا بهذا الذى عرفوه .

ويروى ابن إسحاق أن مقالة الجن انتهت عند هذه الآية ، ولكن السياق يوحى بأن الآيتين التاليتين هما من مقولات النفر أيضاً ، ونحن نرجو هذا وبخاصة الآية التالية :

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ

---

(1) **الأحقاف : ٣١ .**

أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

فهى تكملة طبيعية لنذارة النفر لقومهم فقد دعوهم إلى الاستجابة والإيمان ، فالاحتمال قوى وراجح أن يبينوا لهم أن عدم الاستجابة وخيم العاقبة ، وأن الذى لا يستجيب لا يعجز الله أن يأتى به ويوقع عليه الجزاء ، ويذيقه العذاب الأليم ، فلا يجد له من دون الله أولياء ينصرونه أو يعينونه ، وأن هؤلاء المعرضين ضالون ضلالاً بيّناً عن الصراط المستقيم .

وكذلك الآية التى بعدها يحتمل كثيراً أن تكون من كلامهم ، تعجيباً من أولئك الذين لا يستجيبون لله ، حاسبين أنهم سيفلتون ، أو أنه ليس هناك حساب ولا جزاء : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

سورة الجن وإيقاعها الموسيقى

قال تعالى :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا

---

(1) الأحقاف : ٣٢ . (2) الأحقاف : ٣٣ .

شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾[1].

هذه السورة تُبْدِهُ الحِسَّ – قبل أن يَنْظُرُ إلى المعانى والحقائق الواردة فيها – بشيء آخر واضح كل الوضوح فيها ، إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع ، قوية التنغيم ، ظاهرة الرنين ، مع صبغة من الحزن فى إيقاعها ، وَمِسْحَةٍ من الأسى فى تنغيمها ، وطائف من الشجى فى رنينها ، يساند هذه الظاهرة ويتناسق معها صور السورة وظلالها ومشاهدها ، ثم روح الإيحاء فيها ، وبخاصة فى الشطر الأخير منها بعد انتهاء حكاية قول الجن ، والاتجاه بالخطاب إلى رسول

(١) الجن : ١ – ٢٠.

الله (ﷺ) هذا الخطاب الذى يثير العطف على شخص الرسول فى قلب المستمع لهذه السورة ، عطفاً مصحوباً بالحب وهو يؤمر أن يعلن تجرده من كل شيء فى أمر هذه الدعوة إلَّا البلاغ ، والرقابة الإلهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾[1].

وذلك كله إلى جانب الإيقاع النفسى للحقائق التى وردت فى حكاية قول الجن ، وبيانهم الطويل المديد ، وهى حقائق ذات ثقل ووزن فى الحس والتصور ، والاستجابة لها تغشى الحس بحالة من التدبر والتفكير ، تناسب مسحة الحزن ورنة الشجى المتمشية فى إيقاع السورة الموسيقية !

وقراءة هذه السورة بشيء من الترتيل الهادئ توقع فى الحس هذا الذى وصفناه من المِسْحَة الغالبة عليها .

---

(١) الجن : ٢٠ - ٢٨ .

التصور الإسلامى عن حقيقة الجن

فإذا تجاوزنا هذه الظاهرة التى تُبْدِهُ الحِسَّ ، إلى موضوع سورة الجن ومعانيها واتجاهها فإننا نجدها حافلة بشتى الدلالات والإيحاءات .

إنها ابتداء شهادة من عالم آخر بكثير من قضايا العقيدة التى كان المشركون يجحدونها ويجادلون فيها أشد الجدل ، ويرجمون فى أمرها رجماً لا يستندون فيه إلى حجة ، ويزعمون أحياناً أن محمداً (ﷺ) يتلقى من الجن ما يقوله لهم عنها ، فتجىء الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التى يجحدونها ويجادلون فيها ، وبتكذيب دعواهم فى استمداد محمد (ﷺ) من الجن شيئاً ، والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلَّا حين سمعوه من محمد (ﷺ) فهالهم وراعهم وَمَسَّهُم منه ما يدهش ويذهل ، وملأ نفوسهم وفاض حتى ما يملكون السكوت على ما سمعوا ، ولا الإجمال فيما عرفوا ، ولا الاختصار فيما شعروا ، فانطلقوا يحدثون فى روعة المأخوذ ، ووهلة المشدوه ، عن هذا الحادث العظيم ، الذى شغل السماء والأرض والإنس والجن والملائكة والكواكب ، وترك آثاره ونتائجه فى الكون كله ! وهى شهادة لها قيمتها فى النفس البشرية حتماً .

ثم إنها تصحيح لأوهام كثيرة عن عالم الجن فى نفوس المخاطبين ابتداء بهذه السورة ، وفى نفوس الناس جميعاً من قبل ومن بعد ، ووضع حقيقة هذا الخلق المغيب فى موضعها بلا غلو ولا اعتساف ، فقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطاناً فى الأرض ، فكان الواحد منهم إذا أمسى بوادٍ أو قفر ، لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض ، فقال : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه ، ثم بات آمناً ! كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان فيتنبئون بما يتنبئون ، وفيهم من عبد الجن وجعل بينهم وبين الله نسباً ، وزعم له سبحانه وتعالى زوجة منهم تلد له الملائكة !

والاعتقاد فى الجن على هذا النحو أو شبهه كان فاشياً فى كل جاهلية ، ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرة إلى يومنا هذا !!

وبينما كانت الأوهام والأساطير تغمر قلوب الناس ومشاعرهم وتصوراتهم عن الجن في القديم ، ومازال ؛ نجد في الصف الآخر اليوم منكرين لوجود الجن أصلاً ، يصفون أي حديث عن هذا الخلق المغيب بأنه حديث خرافة .

وبين الإغراق في الوهم ، والإغراق في الإنكار ، يقرر الإسلام حقيقة الجن ، وَيُصَحِّحُ التصورات العامة عنهم ، وَيُجَرِّدُ القلوب من خوفها وخضوعها لسلطانهم الموهوم :

فالجن لهم حقيقة موجودة فعلاً وهم كما يصفون أنفسهم هنا : ﴿ **وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قِدداً** ﴾ ، ومنهم الضالون المضلون ومنهم السذج الأبرياء الذين ينخدعون : ﴿ **وأنَّه كانَ يقولُ سفيهُنَا على اللهِ شططاً ۝ وأنَّا ظننَّا أن لن تَقُولَ الإنسُ والجنُّ على اللهِ كذباً** ﴾ .

وهم قابلون للهداية من الضلال ، مستعدون لإدراك القرآن سماعاً وفهماً وتأثراً : ﴿ **قل أُوحِيَ إلَيَّ أنَّه استمعَ نفرٌ من الجنِّ فقالوا إنَّا سمعْنَا قرآناً عجباً ۝ يَهْدِي إلى الرشدِ فآمنَّا بهِ ولن نشركَ بربِّنَا أحداً** ﴾ .

وأنهم قابلون بخلقتهم لتوقيع الجزاء عليهم وتحقيق نتائج الإيمان والكفر فيهم : ﴿ **وأنَّا لمَّا سَمِعْنَا الهُدى آمنَّا بـهِ فمن يؤمن بربهِ فلا يخافُ بخساً ولا رهقاً ۝ وأنَّا منَّا المسلمونَ ومنَّا القاسطـون فمن أسلَمَ فأولئك تحرَّوا رشداً ۝ وأمَّا القاسطُون فكانُوا لجهنَّم حطَباً** ﴾ .

وأنهم لا ينفعون الإنس حين يلوذون بهم بل يرهقونهم : ﴿ **وأنَّه كانَ رجالٌ من الإنسِ يَعُوذُون برجالٍ من الجنِّ فزادُوهم رهقاً** ﴾ .

وأنهم لا يعلمون الغيب ، ولم تعد لهم صلة بالسماء : ﴿ **وأنَّا لمسنا السماءَ فوجدناها مُلِئَت حرساً شديداً وشُهباً ۝ وأنَّا كُنَّا نقعدُ مِنها مقاعدَ للسمعِ فمن يستمعِ الآنَ يجد لَهُ شِهاباً رَصَداً ۝ وأنَّا لا ندرِي أشرٌ أريدَ بمن في الأرضِ أم أرادَ بِهِم ربُّهم رَشَداً** ﴾ .

وأنهم لا صهر بينهم وبين الله سبحانه وتعالى ولا نسب : ﴿ **وأنَّهُ تعالى جدُّ رَبِّنَا ما اتخذَ صاحبةً ولا ولداً** ﴾ .

وأن الجن لا قوة لهم مع قوة الله ولا حيلة : ﴿ **وأنَّا ظَنَنَّا أن لن نعجزَ**

اللهَ فى الأرضِ ولن نعجزَهُ هَرَباً ﴾ .

وهذا الذى ذُكِرَ فى هذه السورة عن الجن بالإضافة إلى ما جاء فى القرآن من صفات أخرى كتسخير طائفة من الشياطين لسليمان عليه السلام – وهم من الجن – وأنهم لم يعلموا بموته إلّا بعد فترة ، فدل هذا على أنهم لا يعلمون الغيب : **﴿ فلمّا قضينا عليه الموت ما دَلَّهُمْ على موتِهِ إلّا دابة الأرضِ تأكُلُ مِنسَأتَه فلمّا خرَّ تبينت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المُهين ﴾**[1].

ومثل قوله تعالى عن خصيصة من خصائص إبليس وقبيله – وهو من الجن – غير أنه تمحض للشر والفساد والإغراء : **﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾** ، وما يدل عليه من أن كيان الجن غير مرئى للبشر ، فى حين أن كيان الإنس مرئىٌ للجن .

هذا بالإضافة إلى ما قَرَّرَهُ فى سورة الرحمن عن المادة التى منها كيان الجن والمادة التى منها كيان الإنسان فى قوله تعالى : **﴿ خلق الإنسانَ من صلصالٍ كالفخار ، وخلق الجانَّ من مارجٍ من نار ﴾**[2] يعطى صورة عن ذلك الخلق المغيب ، تثبت وجوده ، وتحدد الكثير من خصائصه ، وفى الوقت ذاته تكشف الأوهام والأساطير ، العالقة بالأذهان عن ذلك الخلق ، وتدع المسلم عنه واضحاً دقيقاً متحرراً من الوهم والخرافة ، ومن التعسف فى الإنكار الجامح كذلك !

وقد تكفلت هذه السورة بتصحيح ما كان مشركو العرب وغيرهم يظنونه عن قدرة الجن ودورهم فى هذا الكون ، أما الذين ينكرون وجود هذا الخلق إطلاقاً ، فلا أدرى علام يبنون هذا الإنكار ، بصيغة الجزم والقطع ، والسخرية من الاعتقاد بوجوده ، وتسميته خرافة !

ألأنهم عرفوا كل ما فى هذا الكون من خلائق فلم يجدوا الجن من بينها ؟ إن أحداً من العلماء لا يزعم هذا حتى اليوم ، وإن فى هذه الأرض وحدها من الخلائق الحية لكثيراً مما يكشف وجوده يوماً بعد يوم ، ولم يقل أحد إن سلسلة الكشوف للأحياء فى الأرض وقفت أو ستقف فى يوم من الأيام !

---

(١) سبأ : ١٤ .	(٢) الرحمن : ١٤ – ١٥ .

ألأنهم عرفوا كل القوى المكنونة فى هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها ؟ إن أحداً لا يدعى هذه الدعوى ، فهناك قوى مكنونة تكشف كل يوم ، وهى كانت مجهولة بالأمس ، والعلماء جادون فى التعرّف إلى القوى الكونية ، وهم يعلنون فى تواضع قادتهم إليه كشوفهم العلمية ذاتها ، أنهم يقفون على حافة المجهول فى هذا الكون ، وأنهم لم يكادوا يبدءون بعد !

ألأنهم رأوا كل القوى التى استخدموها ، فلم يروا الجن من بينها ؟ ولا هذه فإنهم يتحدثون عن الكهرب بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرة ، ولكن أحداً منهم لم ير الكهرب قط ، وليس فى معاملهم من الأجهزة ما يفرزون به كهرباً من هذه الكهارب التى يتحدثون عنها !

ففيم إذن هذا الجزم بنفى وجود الجن ؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضآلة بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشىء ؟ ألأن هذا الخلق المسمى الجن تعلقت به خرافات شتى وأساطير كثيرة ؟ إن طريقنا فى هذه الحالة هو إبطال هذه الخرافات والأساطير كما صنع القرآن الكريم ، لا التبجح بنفى وجود هذا الخلق من الأساس ، بلا حجة ولا دليل ! ومثل هذا الغيب ينبغى تلقى نبئه من المصدر الوحيد الموثوق بصحته ، وعدم معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة لم تستمد منه ، فما يقوله هو كلمة الفصل فى مثل هذا الموضوع .

ما اشترك به الجن والإنس

سورة الجن تساهم مساهمة كبيرة فى إنشاء التصور الإسلامى عن حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، ثم عن هذا الكون وخلائقه ، والصلة بين هذه الخلائق المنوعة .

وفى مقالة الجن ما يشهد بوحدانية الله ، ونفى الصاحبة والولد ، وإثبات الجزاء فى الآخرة ، وأن أحداً من خلق الله لا يعجزه فى الأرض ولا يفلت من يديه ويفوته ، فلا يلاقى جزاءه العادل ، وتتكرر بعض هذه الحقائق فيما يوجه للرسول (ﷺ) من الخطاب : ﴿ **قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً** ﴾ ، ﴿ **قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً** ﴾ ،

وذلك بعد شهادة الجن بهذه الحقيقة شهادة كاملة صريحة .

كما أن تلك الشهادة تقرر أن الألوهية لله وحده ، وأن العبودية هي أسمى درجة يرتفع إليها البشر : ﴿ **وأنه لما قامَ عبدُ اللهِ يدعُوه كادُوا يكونون عليهِ لِبَداً** ﴾ ، ويؤكد السياق هذه الحقيقة فيما يوجه للرسول (ﷺ) من خطاب : ﴿ **قل إنى لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً** ﴾ .

والغيب موكول لله وحده ، لا تعرفه الجن : ﴿ **وأنا لا ندرى أشرٌ أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً** ﴾ ، ولا تعرفه الرسل إلّا ما يطلعهم الله عليه منه لحكمة يعلمها : ﴿ **قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمداً ۝ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ۝ إلّا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً** ﴾ .

أما العباد والعبيد فى هذا الكون ، فقد علّمتنا السورة أن بين بعضها والبعض الآخر مشاركات ومنافذ ، ولو اختلف تكوينها ، كالمشاركات التى بين الجن والإنس ، مما حكته السورة وحكاه القرآن فى مواضع أخرى ، فالإنسان ليس بمعزل – حتى فى هذه الأرض – عن الخلائق الأخرى ، وبينه وبينها اتصال وتفاعل فى صورة من الصور ، وهذه العزلة التى يحسها الإنسان بجنسه – بله العزلة الفردية أو القبلية أو القومية – لا وجود لها فى طبيعة الكون ولا فى واقعه ، وأحرى بهذا التصور أن يفسح فى شعور الإنسان بالكون وما يعمره من أرواح وقوى وأسرار ، قد يجهلها الإنسان ، ولكنها موجودة بالفعل من حوله ، فهو ليس الساكن الوحيد لهذا الكون كما يعن له أحيانًا أن يشعر !!

ثم إن هناك ارتباطاً بين استقامة الخلائق على الطريقة ، وتحركات هذا الكون ونتائجها ، وقدر الله فى العباد : ﴿ **وألَّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ۝ لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً** ﴾ ، وهذه الحقيقة تؤلف جانباً من التصور الإسلامى للارتباطات بين الإنسان والكون وقدر الله .

تكرار حادث استماع الجن للقرآن

أما هذا الحادث الذى أشارت إليه السورة ، حادث استماع نفر من الجن للقرآن ، فتختلف بشأنه الروايات ؛ قال البيهقى فى كتابه : « دلائل النبوة » : بسنده لابن عباس قال :

« ما قرأ رسول الله (ﷺ) على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله (ﷺ) فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، أرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلّا شىء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله (ﷺ) وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا إليه ، فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم قالوا : ﴿ **إنا سمعنا قرآناً عجباً** ۞ يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ ، وأنزل الله على نبيه (ﷺ) : ﴿ **قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن** ﴾ ، وإنما أُوحِىَ إليه قول الجن »[1].

فهذه رواية .

وهناك رواية أخرى أخرجها مسلم فى « صحيحه » عن عامر قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله (ﷺ) ليلة الجن ؟ قال : فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله (ﷺ) ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكنا كنا مع رسول الله (ﷺ)

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم كما عزاه فى « الظلال » ٣٧٢٤/٦ ، وأخرجه الحاكم ٥٠٣/٢ ، والبيهقى ١٩٤/٢ .

ذات ليلة ، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب ، فقيل : استطير ؟ اغتيل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو ، جاء من قبل حراء ، قال : فقلنا : يارسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فقال :

« أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن » .

قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم » ، قال رسول الله (ﷺ) : « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم »[1].

وهناك رواية أخرى عن ابن مسعود أنه كان تلك الليلة مع رسول الله (ﷺ) ولكن إسناد الرواية الأولى أوثق ، فنضرب عن هذه وأمثالها ، ومن الروايتين الواردتين فى الصحيحين يتبين أن ابن عباس يقول : إن رسول الله (ﷺ) لم يعرف بحضور النفر من الجن ، وأن ابن مسعود يقول : إنهم استدعوه ، ويوفق البيهقى بين الروايتين بأنهما حادثان لا حادث واحد .

وهناك رواية ثالثة لابن إسحاق قال :

« ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله (ﷺ) من الأذى مالم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب ، فخرج رسول الله (ﷺ) إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده .

قال ابن إسحاق : فحدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظى قال : لما انتهى رسول الله (ﷺ) إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة : ياليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير ، وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح ، فجلس إليهم رسول الله (ﷺ) فدعاهم إلى

---

(١) أخرجه مسلم (الصلاة) ١٥٠ ، والترمذى (٣٢٥٨) ، والبيهقى ١١/١ و ١٠٩ ، و « نصب الراية » ٢٣٩/١ ، وابن كثير ٢٧٥/٧ ، و « الفتح » ١٧٢/٧ و ٦٧٠ ، و « الإتحاف » ٤٦٢/٤ ، والطبرى ٢١/٢٦ ، و « شرح معانى الآثار » ١٢٤/١ و « البداية » ٥٧/١ .

الله ، وَكَلَّمَهُم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة (أى يمزقها) إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك ، فقام رسول الله (ﷺ) من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم - فيما ذكر لى -:

« إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى » ، وكره رسول الله (ﷺ) أن يبلغ قومه عنه ، فيذئرهم (أى يحرشهم) ذلك عليه !

فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط (أى بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة - وهما فيه - ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبلة من عنب (أى طاقة من قضبان الكرم) فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف ، فلما اطمأن رسول الله (ﷺ) قال - فيما ذكر لى - :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، و هوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »[1].

قال : فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقى تحركت له رحمتهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له : عداس ، فقالا له : خذ قطفاً من هذا العنب ، فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل

---

(١) أخرجه القرطبى ٢١١/١٦ ، و « ظلال القرآن » ٣٧٢٥/٦ ، والطبرى فى تاريخه ٣٤٥/٢ - ٣٤٦ ، و « البداية » ١٣٦/٣ ، و « جمع الجوامع » (٩٧٤٣) و « الكنز » (٣٦١٣) و (٣٧٥٦) و (٥١٢٠) .

عَدَّاس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله (ﷺ) ثم قال له : كل ، فلما وضع رسول الله (ﷺ) فيه يده قال : « بسم الله » ثم أكل ، فنظر عداس فى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله (ﷺ) : « ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك » ؟ قال : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى ، فقال له رسول الله (ﷺ) : « من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟» فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله (ﷺ) : « ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبى » فأكب عداس على رسول الله (ﷺ) يقبل رأسه ويديه وقدميه ، قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاءهما عداس قالا له : ويلك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدى ما فى الأرض شىء خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلّا نبى ، قالا له : ويحك يا عداس ! لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه !

قال : ثم إن رسول الله (ﷺ) انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة ، حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى ، فَمَرَّ به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى ، وهم – فيما ذكر لى – سبعة نفر من جن أهل نصيبين ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته وَلَّوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا ، فَقَصَّ الله خبرهم عليه (ﷺ) قال الله عز وجل :

﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **وَيُجِرْكُم من عذاب أليم** ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ **قل أوحِىَ إلَىَّ أنه استمعَ نفرٌ من الجنّ** .. ﴾ إلى آخر القصة من خبرهم فى هذه السورة » .

وقد علَّق ابن كثير فى تفسيره على رواية ابن إسحاق هذه فقال :

هذا صحيح ، ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر ، فإن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء كما دل عليه حديث ابن عباس

المذكور ، وخروجه (ﷺ) إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره ، والله أعلم .

وإذا صحت رواية ابن إسحاق عن أن الحادث وقع عقب عودة الرسول (ﷺ) من الطائف ، مكسور الخاطر من التصرف اللئيم العنيد الذى واجهه به كبراء ثقيف ، وبعد ذلك الدعاء الكسير الودود لِرَبِّه ومولاه ، فإنه ليكون عجيباً حقاً من هذا الجانب ، أن يصرف الله إليه ذلك النفر من الجن ، وأن يبلغه ما فعلوا وما قالوا لقومهم ، وفيه من الدلالات اللطيفة الموحية ما فيه .

وأياً كان زمان هذا الحادث وملابساته فهو أمر ولاشك عظيم ، عظيم فى دلالاته وفيما انطوى عليه ، وفيما أعقبه من مقالة الجن عن هذا القرآن وعن هذا الدين .

موقف الجن من القرآن

قال تعالى :

﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ... ﴾[1] الآيات .

والنفر ما بين الثلاثة والتسعة كالرهط ، وقيل كانوا سبعة .

وهذا الافتتاح يدل على أن معرفة النبى (ﷺ) بأمر استماع الجن له ، وما كان منهم بعد أن سمعوا القرآن منه كانت بوحى من الله سبحانه إليه ، وإخباراً عن أمر وقع ولم يعلم به الرسول (ﷺ) ولكن الله أطلعه عليه ، وقد تكون هذه هى المرة الأولى ، ثم كانت هناك مرة أو مرات أخرى قرأ النبى فيها على الجن عن علم وقصد ، ويشهد بهذا ما جاء بشأن قراءته (ﷺ) سورة الرحمن أخرجه الترمذى بإسناده عن جابر قال : خرج رسول الله (ﷺ) على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال : « لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن ردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله تعالى : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ قالوا : لا بشىء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد »[2] .

---

(١) الجن : ١ .

(٢) أخرجه الترمذى (٣٢٩١) ، و « الدر المنثور » ١٤٠/٦ ، وابن كثير ٤٦٣/٧ ، والقرطبى ١٥١/١٧ ، و « ظلال القرآن » ٣٧٢٦/٦ .

وهذه الرواية تؤيد رواية ابن مسعود التى سبقت الإشارة إليها فى المقدمة .

ولابد أن هذه المرة التى تحكيها هذه السورة هى التى تحكيها آيات الأحقاف :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

فإن هذه الآيات – كسورة الجن – تنبىء عن وهلة المفاجأة بهذا القرآن للجن ، مفاجأة أطارت تماسكهم ، وزلزلت قلوبهم ، وهزت مشاعرهم ، وأطلقت فى كيانهم دفعة عنيفة من التأثر امتلأ بها كيانهم كله وفاض ، فانطلقوا إلى قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائضة بما لا تملك له دفعاً ، ولا تملك عليه صبراً ، قبل أن تفيضه على الآخرين فى هذا الأسلوب المتدفق ، النابض بالحرارة والانفعال ، وبالجد والاحتفال فى نفس الأوان ، وهى حالة من يفاجأ أول مرة بدفعة قوية ترج كيانه ، وتخلخل تماسكه ، وتدفعه دفعاً إلى نقل ما يحسه إلى نفوس الآخرين فى حماسة واندفاع ، وفى جد كذلك واحتفال !

﴿ **إنا سمعنا قرآناً عجباً** ﴾ .

فأول ما بدههم منه أنه « عجب » غير مألوف ، وأنه يثير الدهش فى القلوب ، وهذه صفة القرآن عند من يتلقاه بحس واعٍ وقلب مفتوح ،

---

(١) الأحقاف : ٢٩ – ٣٢ .

ومشاعر مرهفة ، وذوق ذواق .. عجب ! ذو سلطان متسلط ، وذو جاذبية غلابة ، وذو إيقاع يلمس المشاعر ويهز أوتار القلوب .. عجب ! فعلاً ، يدل على أن أولئك النفر من الجن كانوا حقيقة يتذوقون !

﴿ **يهدى إلى الرشد** ﴾ .

وهذه هى الصفة الثانية البارزة كذلك فى هذا القرآن ، والتى أحسها النفر من الجن ، حين وجدوا حقيقتها فى قلوبهم ، وكلمة الرشد فى ذاتها ذات دلالة واسعة المدى ، فهو يهدى إلى الهدى والحق والصواب ، ولكن كلمة الرشد تلقى ظِلًّا آخر وراء هذا كله ، ظل النضوج والاستواء والمعرفة الرشيدة للهدى والحق والصواب ، ظل الإدراك الذاتى البصير لهذه الحقائق والمقومات ، فهو ينشىء حالة ذاتية فى النفس تهتدى بها إلى الخير والصواب .

والقرآن يهدى إلى الرشد بما ينشئه فى القلب من تفتح وحساسية ، وإدراك ومعرفة ، واتصال بمصدر النور والهدى ، واتساق مع النواميس الإلهية الكبرى ، كما يهدى إلى الرشد بمنهجه التنظيمى للحياة وتصريفها ، هذا المنهج الذى لم تبلغ البشرية فى تاريخها كله ، فى ظل حضارة من الحضارات ، أو نظام من الأنظمة ما بلغته فى ظله أفرادًا وجماعات ، قلوباً ومجتمعات ، أخلاقاً فردية ومعاملات اجتماعية على السواء .

﴿ **فآمنا به** ﴾ .

وهى الاستجابة المستقيمة لسماع القرآن ، وإدراك طبيعته ، والتأثر بحقيقته ؛ يعرضها الوحى على المشركين الذين كانوا يسمعون هذا القرآن ثم لا يؤمنون ، وفى الوقت ذاته ينسبونه إلى الجن ، فيقولون : كاهن أو شاعر أو مجنون ، وكلها صفات للجن فيها تأثير ، وهؤلاء هم الجن مبهورين بالقرآن مسحورين متأثرين أشد التأثر ، منفعلين أشد الانفعال ، لا يملكون أنفسهم من الهزة التى ترج كيانهم رجاً ، ثم يعرفون الحق ، فيستجيبون له مذعنين معلنين هذا الإذعان : ﴿ **فآمنا به** ﴾ غير منكرين لما مسّ نفوسهم منه ولا معاندين ، كما كان المشركون يفعلون !

إيمان الجن بالله

قال تعالى :

﴿ ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ .

فهو الإيمان الخالص الصريح الصحيح ، غير مشوب بشرك ، ولا ملتبس بوهم ، ولا ممتزج بخرافة ، الإيمان الذى ينبعث من إدراك حقيقة القرآن ، والحقيقة التى يدعو إليها القرآن ، حقيقة التوحيد لله بلا شريك .

﴿ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾ .

والجد : الحظ والنصيب ، وهو القدر والمقام ، وهو العظمة والسلطان ، وكلها إشعاعات من اللفظ تناسب المقام ، والمعنى الإجمالى منها فى الآية هو التعبير عن الشعور باستعلاء الله سبحانه وبعظمته وجلاله عن أن يتخذ صاحبة – أى زوجة – وولداً بنين أو بنات !

وكانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله ، جاءته من صهر مع الجن ! فجاءت الجن تكذب هذه الخرافة الأسطورية فى تسبيح لله وتنزيه ، واستنكاف من هذا التصور أن يكون ! وكانت الجن حرية أن تفخر بهذا الصهر الخراف الأسطورى لو كان يشبه أن يكون ! فهى قذيفة ضخمة تطلق على ذلك الزعم الواهى فى تصورات المشركين ! وكل تصور يشبه هذه التصورات ، ممن زعموا أن لله ولداً سبحانه فى أية صورة وفى أى تصوير !

﴿ وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً ۝ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً ﴾ .

وهذه مراجعة من الجن لما كانوا يسمعون من سفهائهم من الشرك بالله ، وادعاء الصاحبة والولد والشريك ، بعدما تبين لهم من سماع القرآن أنه لم يكن حقاً ولا صواباً ، وأن قائليه إذن سفهاء فيهم خرق وجهل ، وهم يعللون تصديقهم لهؤلاء السفهاء من قبل بأنهم كانوا لا يتصورون أن أحداً يمكن أن يكذب على الله من الإنس أو الجن ، فهم يستعظمون ويستهولون أن يجرؤ أحد على الكذب على الله . فلما قال لهم سفهاؤهم : إن لله صاحبة وولداً ، وإن

له شريكاً صدقوهم ، لأنهم لم يتصوروا أنهم يكذبون على الله أبداً ، وهذا الشعور من هؤلاء النفر بنكارة الكذب على الله ، هو الذى أهّلهم للإيمان ، فهو دلالة على أن قلوبهم نظيفة مستقيمة ، إنما جاءها الضلال من الغرارة والبراءة ! فلما مسها الحق انتفضت ، وأدركت ، وتذوقت وعرفت ، وكان منهم هذا الهتاف المدوى : ﴿ **إنا سمعنا قرآنا عجباً * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً** ﴾ .

وهذه الانتفاضة من مَسِّ الحق ، جديرة بأن تنبه قلوباً كثيرة مخدوعة فى كبراء قريش ، وزعمهم أن لله شركاء أو صاحبة وولداً ، وأن تثير فى هذه القلوب الحذر واليقظة ، والبحث عن الحقيقة فيما يقوله محمد (ﷺ) وما يقوله كبراء قريش ، وأن تزلزل الثقة العمياء فى مقالات السفهاء من الكبراء ! وقد كان هذا كله مقصوداً بذكر هذه الحقيقة ، وكان جولة من المعركة الطويلة بين القرآن وبين قريش العصية المعاندة ، وحلقة من حلقات العلاج البطيء لعقابيل الجاهلية وتصوراتها فى تلك القلوب ، التى كان الكثير منها غراً بريئاً ، ولكنه مضلل مقود بالوهم والخرافة وأضاليل المضللين من القادة الجاهليين !

الجن ليس لهم سلطان على من يعتصم بالله

قال تعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[1].

وهذه إشارة من الجن إلى ما كان متعارفاً فى الجاهلية – ومايزال متعارفاً إلى اليوم فى بيئات كثيرة – من أن للجن سلطاناً على الأرض وعلى الناس ، وأن لهم قدرة على النفع والضر ، وأنهم محكمون فى مناطق من الأرض أو البحر أو الجو ، إلى آخر هذه التصورات ، مما كان يقتضى القوم إذا باتوا فى فلاة أو مكان موحش ، أن يستعيذوا بسيد الوادى من سفهاء قومه ، ثم يبيتون بعد ذلك آمنين !

---

(١) الجن : ٦ .

والشيطان مُسلَّط على قلوب بنى آدم - إلّا من اعتصم بالله فهو فى نجوة منه - وأما من يركن إليه فهو لا ينفعه ، فهو له عدو ، إنما يرهقه ويؤذيه .. وهؤلاء النفر من الجن يحكون ما كان يحدث : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾ ، ولعل هذا الرهق هو الضلال والقلق والحيرة التى تنوش قلوب من يركنون إلى عدوهم ، ولا يعتصمون بالله منه ويستعيذون ! كما هم مأمورون منذ أبيهم آدم وما كان بينه وبين إبليس من العداء القديم !

والقلب البشرى حين يلجأ إلى غير الله ، طمعاً فى نفع ، أو دفعاً لضر ، لا يناله إلّا القلق والحيرة ، وقلة الاستقرار والطمأنينة ، وهذا هو الرهق فى أسوأ صوره ؛ الرهق الذى لا يشعر معه القلب بأمن ولا راحة !

إن كل شيء سوى الله وكل أحد متقلب غير ثابت ، ذاهب غير دائم ، فإذا تعلق به قلب بقى يتأرجح ويتقلب ويتوقع ويتوجس ، وعاد يغير اتجاهه كلما ذهب هذا الذى عقد به رجاءه ، والله وحده هو الباقى الذى لا يزول ، الحى الذى لا يموت ، الدائم الذى لا يتغير ، فمن اتجه إليه اتجه إلى المستقر لثابت الذى لا يزول ولا يحول .

دعوة الجن لقومهم

قال تعالى :

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾[1].

يتحدثون إلى قومهم ، عن أولئك الرجال من الإنس الذين كانوا يعوذون برجال من الجن ، يقولون : إنهم كانوا يظنون - كما أنكم تظنون - أن الله لن يبعث رسولاً ، ولكن ها هو ذا قد بعث رسولاً ، بهذا القرآن الذى يهدى إلى الرشد ، أو أنهم ظنوا أنه لن يكون هناك بعث ولا حساب - كما ظننتم - فلم يعملوا للآخرة شيئاً ، وكذبوا ما وعدهم الرسول (ﷺ) من أمرها ، لأنهم كانوا لا يعتقدون من قبل فيها .

---

(١) الجن : ٧ .

وكلا الظنين لا ينطبق على الحقيقة ، وفيه جهل وقلة إدراك لحكمة الله فى خلق البشر ، فقد خلقهم باستعداد مزدوج للخير والشر والهدى والضلال كما نعرف من هذه السورة أن للجن هذه الطبيعة المزدوجة كذلك إلّا من تمحض منهم للشر كإبليس ، وطرد من رحمة الله بمعصيته الفاجرة ، وانتهى إلى الشر الخالص بلا ازدواج ومن ثم اقتضت رحمة الله أن يعين أولئك البشر بالرسل ، يستجيشون فى نفوسهم عنصر الخير ، ويستنقذون ما فى فطرتهم من استعداد للهدى ، فلا مجال للاعتقاد بأنه لن يبعث إليهم أحداً .

هذا إذا كان المعنى هو بعث الرسل ، فأما بعث الآخرة فهو ضرورة كذلك لهذه النشأة التى لا تستكمل حسابها فى الحياة الدنيا ، لحكمة أرادها الله ، وتتعلق بتنسيق للوجود يعلمه ولا نعلمه ، فجعل البعث فى الآخرة لتستوفى الخلائق حسابها ، وتنتهى إلى ما تؤهلها له سيرتها الأولى فى الحياة الدنيا ، فلا مجال للظن بأنه لن يبعث أحداً من الناس ، فهذا الظن مخالف للاعتقاد فى حكمة الله وكماله ، سبحانه وتعالى .

وهؤلاء النفر من الجن يصححون لقومهم ظنهم ، والقرآن فى حكايته عنهم يصحح للمشركين أوهامهم .

حراسة السماء من استراق الجن السمع

يمضى الجن فى حكاية مالقوه وما عرفوه من شأن هذه الرسالات فى جنبات الكون ، وفى أرجاء الوجود ، وفى أحوال السماء والأرض ، لينفضوا أيديهم من كل محاولة لا تتفق مع إرادة الله بهذه الرسالة ، ومن كل ادعاء بمعرفة الغيب ، ومن كل قدرة على شىء من هذا الأمر :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ

﴿ ... بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾[1].

وهذه الوقائع التى حكاها القرآن عن الجن من قولهم ، توحى بأنهم قبل هذه الرسالة الأخيرة – ربما فى الفترة بينها وبين الرسالة التى قبلها وهى رسالة عيسى عليه السلام كانوا يحاولون الاتصال بالملأ الأعلى ، واستراق شيء مما يدور فيه ، بين الملائكة ، عن شئون الخلائق فى الأرض ، مما يكلفون قضاءه تنفيذاً لمشيئة الله وقدره ، ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين ، ليقوم هؤلاء بفتنة الناس وفق خطة إبليس ! على أيدى هؤلاء الكهان والعرافين الذين يستغلون القليل من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل ، ويروجونه بين جماهير الناس فى الفترة بين الرسالتين ، وخلو الأرض من رسول ، أما كيفية هذا وصورته فلم يقل لنا عنها شيئاً ، ولا ضرورة لتقصيها ، إنما هى جملة هذه الحقيقة وفحواها .

وهذا النفر من الجن يقول : إن استراق السمع لم يعد ممكناً ، وإنهم حين حاولوه الآن – وهو ما يعبرون عنه بلمس السماء – وجدوا الطريق إليه محروساً بحرس شديد ، يرجمهم بالشهب ، فتنقض عليهم وتقتل من توجه إليه منهم ، ويعلنون أنهم لا يدرون شيئاً عن الغيب المقدر للبشر : ﴿ **وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً** ﴾ ، فهذا الغيب موكول لعلم الله لا يعلمه سواه ، فأما نحن فلا نعلم ماذا قدر الله لعباده فى الأرض : قدر أن ينزل بهم الشر ، فهم متروكون للضلال ، أم قدر لهم الرشد – وهو الهداية – وقد جعلوها مقابلة للشر ، فهى الخير ، وعاقبتها هى الخير .

وإذا كان المصدر الذى يزعم الكهان أنهم يستقون منه معلوماتهم عن الغيب ، يقرر أنه هو لا يدرى عن ذلك شيئاً ، فقد انقطع كل قول ، وبطل كل زعم ، وانتهى أمر الكهانة والعرافة ، وتمحض الغيب لله ، لا يجترئ أحد على القول بمعرفته ، ولا على التنبؤ به ، وأعلن القرآن تحرير العقل البشرى من كل وهم وكل زعم من هذا القبيل ! وأعلن رشد البشرية منذ ذلك اليوم وتحررها من الخرافات والأساطير !

---

(1) الجن : ٨ – ١٠ .

أما أين يقف ذلك الحرس ؟ ومن هو ؟ وكيف يرجم الشياطين بالشهب ؟ فهذا كله مما لم يقل لنا عنه القرآن ولا الأثر شيئاً ، وليس لنا مصدر سواهما نستقى منه عن هذا الغيب شيئاً ، ولو علم الله أن فى تفصيله خيراً لنا لفعل ، وإذا لم يفعل فمحاولتنا نحن فى هذا الاتجاه عبث ، ولا يضيف إلى حياتنا ولا إلى معرفتنا المثمرة شيئاً !

ولا مجال كذلك للاعتراض أو الجدل حول الشهب ، وأنها تسير وفق نظام كونى ، قبل البعثة وبعدها ووفق ناموس يحاول علماء الفلك تفسيره بنظريات تخطئ وتصيب ، وحتى على فرض صحة هذه النظريات فإن هذا لا يدخل فى موضوعنا ، ولا يمنع أن ترجم الشياطين بهذه الشهب عند انطلاقها ، وأن تنطلق هذه الشهب رجوماً وغير رجوم وفق مشيئة الله الذى يجرى عليها القانون !

فأما الذين يرون فى هذا كله مجرد تمثيل وتصوير لحفظ الله للذكر من الالتباس بأى باطل ، وأنه لا يجوز أن يؤخذ على ظاهره ؛ فسبب هذا عندهم أنهم يجيئون إلى القرآن بتصورات مقررة سابقة فى أذهانهم ، أخذوها من مصادر أخرى غير القرآن ، ثم يحاولون أن يفسروا القرآن وفق تلك التصورات السابقة المقررة فى أذهانهم من قبل ، ومن ثم يرون الملائكة تمثيلاً لقوة الخير والطاعة ، والشياطين تمثيلاً لقوة الشر والمعصية ، والرجوم تمثيلاً للحفظ والصيانة .. إلخ ، لأن فى مقرراتهم السابقة – قبل أن يواجهوا القرآن – أن هذه المسميات : الملائكة والشياطين أو الجن ، لا يمكن أن يكون لها وجود مجسم على هذا النحو ، وأن تكون لها هذه التحركات الحسية والتأثيرات الواقعية !!

ومن أين جاءوا بهذا ؟ من أين جاءوا بهذه المقررات التى يحاكمون إليها نصوص القرآن والحديث ؟

إن الطريق الأمثل فى فهم القرآن وتفسيره ، وفى التصور الإسلامى وتكوينه ، أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق ، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة ، وأن يبنى مقرراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود ، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن ، ولا ينفى شيئاً يثبته القرآن ولا يؤوله ! ولا يثبت شيئاً

ينفيه القرآن أو يبطله ، وما عدا المثبت والمنفى فى القرآن ، فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته .

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن ، وهم مع ذلك يئولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة فى عقولهم ، وتصورات سابقة فى أذهانهم لما ينبغى أن تكون عليه حقائق الوجود .

فأما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ، ويعتسفون نفى هذه التصورات لمجرد أن العلم لم يصل إلى شيء منها ، فهم مضحكون حقاً ! فالعلم لا يعلم أسرار الموجودات الظاهرة بين يديه ، والتى يستخدمها فى تجاربه ، وهذا لا ينفى وجودها طبعاً ! فضلاً على أن العلماء الحقيقيين أخذت كثرة منهم تؤمن بالمجهول على طريق المتدينين ، أو على الأقل لا ينكرون مالا يعلمون ! لأنهم بالتجربة وجدوا أنفسهم – عن طريقة العلم ذاته – أمام مجاهيل فيما بين أيديهم مما كانوا يحسبون أنهم فرغوا من الإحاطة بعلمه ! فتواضعوا تواضعاً علمياً نبيلاً ليست عليه سمة الادعاء ، ولا طابع التطاول على المجهول ، كما يتطاول مدعو العلم ومدعو التفكير العلمى ، ممن ينكرون حقائق الديانات ، وحقائق المجهول !

إن الكون من حولنا حافل بالأسرار ، عامر بالأرواح ، حاشد بالقوى ، وهذه السورة من القرآن – كغيرها – تمنحنا جوانب من الحقائق فى هذا الوجود ، تعين على بناء تصور حقيقى صحيح للوجود وما فيه من قوى وأرواح وحيوانات تعج من حولنا ، وتتفاعل مع حياتنا وذواتنا ، وهذا التصور هو الذى يميز المسلم ويقف به وسطاً بين الوهم والخرافة ، وبين الادعاء والتطاول ، ومصدره هو القرآن والسنة ، وإليهما يحاكم المسلم كل تصور آخر وكل قول وكل تفسير .

وإن هنالك مجالاً للعقل البشرى معيناً فى ارتياد آفاق المجهول : والإسلام يدفعه إلى هذا دفعاً ، ولكن وراء هذا المجال المعين مالا قدرة لهذا العقل على ارتياده ، لأنه لا حاجة به إلى ارتياده ، ومالا حاجة له به فى خلافة الأرض فلا مجال له إليه ، ولا حكمة فى إعانته عليه ، لأنه ليس من شأنه ، ولا داخلاً فى حدود اختصاصه ، والقدر الضرورى له منه ليعلم مركزه فى الكون بالقياس

إلى ما حوله ومن حوله ، قد تكفل الله سبحانه ببيانه له ، لأنه أكبر من طاقته ، وبالقدر الذى يدخل فى طاقته ، ومنه هذا الغيب الخاص بالملائكة والشياطين والروح والمنشأ والمصير .

فأما الذين اهتدوا بهدى الله ، فقد وقفوا فى هذه الأمور عند القدر الذى كشفه الله لهم فى كتبه وعلى لسان رسله ، وأفادوا منه الشعور بعظمة الخالق ، وحكمته فى الخلق ، والشعور بموقف الإنسان فى الأرض من هذه العوالم والأرواح ، وشغلوا طاقاتهم العقلية فى الكشف والعلم المهيأ للعقل فى حدود هذه الأرض وما حولها من أجرام بالقدر الممكن لهم ، واستغلوا ما علموه فى العمل والإنتاج وعمران هذه الأرض والقيام بالخلافة فيها ، على هدى من الله ، متجهين إليه ، مرتفعين إلى حيث يدعوهم للانتفاع .

وأما الذين لم يهتدوا بهدى الله فانقسموا فرقتين كبيرتين :

فرقة ظلت تجاهد بعقولها المحدودة لإدراك غير المحدود من ذاته تعالى ، والمعرفة الحقيقية المغيبة عن غير طريق الكتب المنزلة ، وكان منهم فلاسفة حاولوا تفسير هذا الوجود وارتباطاته ، فظلوا يتعثرون كالأطفال الذين يصعدون جبلاً شاهقاً لا غاية لقمته ، أو يحاولون حل لغز الوجود وهم لم يتقنوا بعد أبجدية الهجاء ! وكانت لهم تصورات مضحكة – وهم كبار فلاسفة – مضحكة حقاً حين يقرنها الإنسان إلى التصور الواضح المستقيم الجميل الذى ينشئه القرآن ، مضحكة بعثراتها ، ومضحكة بمفارقاتها ، ومضحكة بتخلخلها ، ومضحكة بقزامتها بالقياس إلى عظمة الوجود الذى يفسرونه بها لا أستثنى من هذا فلاسفة الإغريق الكبار ، ولا فلاسفة المسلمين الذين قلدوهم فى منهج التفكير ، ولا فلاسفة العصر الحديث ! وذلك حين يقاس تصورهم إلى التصور الإسلامى للوجود .

فهذه فرقة .. فأما الفرقة الأخرى ، فقد يئست من جدوى هذا الاتجاه فى المعرفة ، فعدلت عنه إلى حصر نفسها وجهدها فى العلم التجريبى والتطبيقى ، ضاربة صفحاً عن المجهول ، الذى ليس إليه من سبيل ، وغير مهتدية فيه بهدى الله ، لأنها لا تستطيع أن تدرك الله ! وهذه الفرقة كانت فى أوج غلوائها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولكنها أخذت

من مطلع هذا القرن تفيق من الغرور العلمى الجامح ، على هروب المادة من بين أيديها وتحولها إلى شعاع « مجهول الكنه » ويكاد يكون مجهول القانون !

وبقى الإسلام ثابتاً على صخرة اليقين ، يمنح البشر من المجهول القدر الذى لهم فيه خير ، ويوفر طاقتهم العقلية للعمل فى خلافة الأرض ، ويهيئ لعقولهم المجال الذى تعمل فيه فى أمن ، ويهديهم للتى هى أقوم فى المجهول وغير المجهول !

طبيعة الجن فى الاستعداد للهدى والضلال

أخذ الجن يصفون حالهم وموقفهم من هدى الله ، بما نفهم منه أن لهم طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان فى الاستعداد للهدى والضلال ، ويحدثنا هذا النفر عن عقيدتهم فى ربهم وقد آمنوا به ، وعن ظنهم بعاقبة من يهتدى ومن يضل :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[1].

وهذا التقرير من الجن بأن منهم صالحين وغير صالحين ، مسلمين وقاسطين ، يفيد ازدواج طبيعة الجن ، واستعدادهم للخير والشر كالإنسان – إلا من تمحض للشر منهم وهو إبليس وقبيله – وهو تقرير ذو أهمية بالغة فى تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق ، فأغلبنا حتى الدارسين الفاقهين – على اعتقاد أن الجن يمثلون الشر ، وقد خلصت طبيعتهم له ، وأن الإنسان وحده بين الخلائق هو ذو الطبيعة المزدوجة ، وهذا ناشىء من مقررات سابقة فى

---

(١) الجن : ١١ - ١٥ .

تصوراتنا عن حقائق هذا الوجود كما أسلفنا ، وقد آن أن نراجعها على مقرارات القرآن الصحيحة !.

وهذا النفر من الجن يقول : ﴿ **وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ..** ﴾ ويصف حالهم بصفة عامة : ﴿ **كنا طرائق قدداً** ﴾ أى لكل منا طريقته المنفصلة المقدودة المنقطعة عن طريقة الفريق الآخر .

ثم بين النفر معتقدهم الخاص بعد إيمانهم :

﴿ **وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هرباً** ﴾..

فهم يعرفون قدرة الله عليهم فى الأرض ، ويعرفون عجزهم عن الهرب من سلطانه سبحانه والإفلات من قبضته ، والفكاك من قدره ، فلا هم يعجـزون الله وهم فى الأرض ، ولا هم يعجزونه بالهرب منها . وهو ضعف العبد أمام الرب . وضعف المخلوق أمام الخالق ، والشعور بسلطان الله القاهر الغالب .

وهؤلاء الجن هم الذين يعوذ بهم رجال من الإنس ! وهم الذين يستعين بهم الإنس فى الحوائج ! وهم الذين جعل المشركون بين الله سبحانه وبينهم نسباً ! وهؤلاء هم يعترفون بعجزهم وقدرة الله ، وضعفهم وقوة الله ، وانكسارهم وقهر الله ، فيصححون ، لا لقومهم فحسب بل للمشركين كذلك ، حقيقة القوة الواحدة الغالبة على هذا الكون ومن فيه .

ثقة الجن بالله

ثم يصفون حالهم عندما سمعوا الهدى ، وقد قرَّرُوه من قبل ، ولكنهم يكررونه هنا بمناسبة الحديث عن فرقهم وطوائفهم تجاه الإيمان :

﴿ **وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به** ﴾ .

كما ينبغى لكل من يسمع الهدى ، وهم سمعوا القرآن ، ولكنهم يسمونه هدى كما هى حقيقته ونتيجته ، ثم يقررون ثقتهم فى ربهم ، وهى ثقة المؤمن فى مولاه :

﴿ **فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً** ﴾ ..

وهى ثقة المطمئن إلى عدل الله . وإلى قدرته ، ثم إلى طبيعة الإيمان

وحقيقته ، فالله سبحانه عادل ، ولن يبخس المؤمن حقه ، ولن يرهقه بما فوق طاقته ، والله سبحانه قادر ، فسيحمى عبده المؤمن من البخس وهو نقص الاستحقاق إطلاقاً ، ومن الرهق وهو الجهد والمشقة فوق الطاقة ، ومن ذا الذى يملك أن يبخس المؤمن أو يرهقه وهو فى حماية الله ورعايته ؟ ولقد يقع للمؤمن حرمان من بعض أعراض هذه الحياة الدنيا ، ولكن هذا ليس هو البخس ، فالعوض عما يُحَرَّمُه منها يمنع عنه البخس ، وقد يصيبه الأذى من قوى الأرض ، لكن هذا ليس هو الرهق ، لأن ربه يدركه بطاقة تحتمل الألم وتفيد منه وتكبر به ! وصلته بربه تهوِّن عليه المشقة فتمحضها لخيره فى الدنيا والآخرة .

المؤمن إذن فى أمان نفسى من البخس ومن الرهق : ﴿ **فلا يخاف بخساً ولا رهقاً** ﴾ ، وهذا الأمان يولد الطمأنينة والراحة طوال فترة العافية ، فلا يعيش فى قلق وتوجس ، حتى إذا كانت الضراء لم يهلع ولم يجزع ، ولم تغلق على نفسه المنافذ إنما يعد الضراء ابتلاء من ربه يصبر له فيؤجر ، ويرجو فرج الله منها فيؤجر ، وهو فى الحالين لم يخف بخساً ولا رهقاً ، ولم يكابد بخساً ولا رهقاً .

وصدق النفر المؤمن من الجن فى تصوير هذه الحقيقة المنيرة .

تصور الجن لحقيقة الهدى والضلال

ثم يقررون تصورهم لحقيقة الهدى والضلال ، والجزاء على الهدى والضلال :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾[1].

والقاسطون : الجائرون المجانبون للعدل والصلاح ، وقد جعلهم هذا النفر من الجن فريقاً يقابل المسلمين ، وفى هذا إيماءه لطيفة بليغة المدلول ، فالمسلم عادل مصلح ، يقابله القاسط : الجائر المفسد .

---

(١) الجن : ١٤ - ١٥ .

﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ ، والتعبير بلفظ : « تحروا » يوحى بأن الاهتداء إلى الإسلام معناه الدقة فى طلب الرشد والاهتداء – ضد الغى والضلال – ومعناه تحرى الصواب واختياره عن معرفة وقصد بعد تبين ووضوح ، وليس هو خبط عشواء ولا انسياقاً بغير إدراك ، ومعناه أنهم وصلوا فعلاً إلى الصواب حين اختاروا الإسلام ، وهو معنى دقيق وجميل .

﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ ، أى تقرر أمرهم وانتهى إلى أن يكونوا حطباً لجهنم ، تتلظى بهم وتزداد اشتعالاً ، كما تتلظى النار بالحطب ..

ودل هذا على أن الجن يعذبون بالنار ، ومفهومه أنهم كذلك ينعمون بالجنة ، هكذا يوحى النص القرآنى ، وهو الذى نستمد منه تصورنا ، فليس لقائل بعد هذا أن يقول شيئاً يستند فيه إلى تصور غير قرآنى ، عن طبيعة الجن وطبيعة النار أو طبيعة الجنة ، فسيكون ما قاله الله حقاً بلا جدال ! .

وما ينطبق على الجن مما بَيَّنوه لقومهم ، ينطبق على الإنس وقد قاله لهم الوحى بلسان نبيهم .

مقالة الجن عن فعل الله مع الذين يستقيمون

وإلى هنا كان الوحى يحكى قول الجن بألفاظهم المباشرة عن أنفسهم ، ثم عدل عن هذا النسق إلى تلخيص مقالة لهم عن فعل الله مع الذين يستقيمون على الطريقة إليه ، وذكرها بفحواها لا بألفاظها :

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾[1].

يقول الله سبحانه إنه كان من مقالة الجن عنا : ما فحواه أن الناس لو استقاموا على الطريقة ، أو أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماء موفوراً نغدقه عليهم ، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ ونبتليهم أيشكرون أم يكفرون .

---

(١) الجن : ١٦ – ١٧ .

وهذا العدول عن حكاية قول الجن إلى ذكر فحوى قولهم فى هذه النقطة ، يزيد مدلولها توكيداً بنسبة الإخبار فيها والوعد إلى الله سبحانه ، ومثل هذه اللفتات كثير فى الأسلوب القرآنى ، لإحياء المعانى وتقويتها وزيادة الانتباه إليها .

وهذه اللفتة تحتوى جملة حقائق ، تدخل فى تكوين عقيدة المؤمن ، وتصوره عن مجريات الأمور وارتباطاتها .

والحقيقة الأولى : هى الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله ، وبين إغداق الرخاء وأسبابه ، وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه ، وما تزال الحياة تجرى على خطوات الماء فى كل بقعة ، وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة حتى هذا العصر الذى إنتشرت فيه الصناعة ، ولم تعد الزراعة هى المصدر الوحيد للرزق والرخاء ، ولكن الماء هو الماء فى أهميته العمرانية .

وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين فى الأرض حقيقة قائمة ، وقد كان العرب فى جوف الصحراء يعيشون فى شظف ، حتى استقاموا على الطريقة ، ففتحت لهم الأرض التى يغدودق فيها الماء ، وتتدفق فيها الأرزاق ، ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلاباً ، وما يزالون فى نكد وشظف ، حتى يفيئوا إلى الطريقة ، فيتحقق فيهم وعد الله .

وإذا كانت هناك أمم لا تستقيم على طريقة الله ، ثم تنال الوفر والغنى ، فإنها تعذب بآفات أخرى فى إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها ، يتسلب عن ذلك الغنى والوفر معنى الرخاء ، وتحيل الحياة فيها لعنة مشئومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته .

والحقيقة الثانية : التى تنبثق من نص هذه الآية : هى أن الرخاء ابتلاء من الله للعباد وفتنة ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أشق وأندر من الصبر على الشدة ! على عكس ما يلوح للنظرة العجلى ، فكثيرون هم الذين يصبرون على الشدة ويتماسكون لها ، بحكم ما تثيره فى النفس من تجمع ويقظة ومقاومة ، ومن

ذكر لله والتجاء إليه واستعانة به ، حين تسقط الأسناد فى الشدة فلا يبقى إلا ستره ، فأما الرخاء فينسى ويلهى ، ويرخى الأعضاء وينيم عناصر المقاومة فى النفس ، ويهيىء الفرصة للغرور بالنعمة والاستنامة للشيطان !

إن الابتلاء بالنعمة فى حاجة ملحة إلى يقظة دائمة تعصم من الفتنة .. نعمة المال والرزق كثيراً ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر ، مع السرف أو مع البخل ، وكلاهما آفة للنفس والحياة ، ونعمة القوة كثيراً ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر مع الطغيان والجور ، والتطاول بالقوة على الحق وعلى الناس ، والتهجم على حرمات الله ، ونعمة الجمال كثيراً ما تقود إلى فتنة الخيلاء والتية وتتردى فى مدراك الإثم والغواية ، ونعمة الذكاء كثيراً ما تقود إلى فتنة الغرور والاستخفاف بالآخرين وبالقيم والموازين ، وما تكاد تخلو نعمة من الفتنة إلا من ذكر الله فعصمه الله .

والحقيقة الثالثة : أن الإعراض عن ذكر الله ، الذى قد تنتهى إليه فتنة الابتلاء بالرخاء ، مؤد إلى عذاب الله ، والنص يذكر صفة للعذاب ﴿ **يسلكه عذاباً صعداً** ﴾ توحى بالمشقة من كان الذى يصعد فى المرتفع يجد مشقة فى التصعيد كلما تصعد ، وقد درج القرآن على الرمز للمشقة بالتصعيد ، فجاء فى موضع : ﴿ **فمن يردِ اللهُ أن يهديهُ يشرح صَدْره للإسلام ومن يرد أن يضلَّهُ يجعل صَدرَهُ ضيقاً حرجاً كأنَّما يصَّعَّدُ فى السماءِ** ﴾[1] .. وجاء فى موضع : ﴿ **سأرهقه صَعُوداً** ﴾[2]، وهى حقيقة مادية معروفة ، والتقابل واضح بين الفتنة بالرخاء وبين العذاب الشاق عند الجزاء !.

والآية الثالثة فى السياق يجوز أن تكون حكاية لقول الجن ، ويجوز أن تكون من كلام الله ابتداء :

﴿ **وَأَنَّ المساجدَ للهِ فلا تدعُوا مع اللهِ أحداً** ﴾[3]..

فإن كانت الآية من مقولات الجن فهى توكيد لما سبق من قولهم : ﴿ **ولن نشرك بربنا أحداً** ﴾ فى موضع خاص ، وهو موضع العبادة والسجود ، وإن كانت من قول الله ابتداء ، فهى توجيه بمناسبة مقالة الجن وتوحيدهم لربهم ، يجيء فى موضعه على طريقة القرآن ..

---

(١) الأنعام : ١٢٥ . (٢) المدثر : ١٧ . (٣) الجن : ١٨ .

حال الجن حين اجتماعهم على الرسل

قال تعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾[1] .

أى متجمعين متكتلين عليه ، حين قام يصلى ويدعو ربه والصلاة معناها فى الأصل الدعاء .

فإذا كانت من مقولات الجن ، فهى حكاية منهم عن مشركى العرب ، الذين كانوا يتجمعون فئات حول رسول الله (ﷺ) وهو يصلى أو وهو يتلو القرآن كما قال فى « سورة المعارج » : ﴿ **فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ◦ عن اليمين وعن الشمال عزين** ﴾[2]، يتسمعون فى دهش ولا يستجيبون ، أو وهم يتجمعون لإيقاع الأذى به ، ثم يعصمه الله منهم كما وقع ذلك مراراً ، ويكون قول الجن هذا لقومهم للتعجيب من أمر هؤلاء المشركين !.

وإذا كانت من إخبار الله ابتداء ، فقد تكون حكاية عن حال هذا النفر من الجن ، حين سَمِعُوا القرآن .. العجب .. فَأُخِذُوا وَدُهِشُوا ، وتكأكئوا على رسول الله (ﷺ) بعضهم لصق بعض ، كما تكون لبدة الصوف المنسوق شعرها ، بعضه لصق بعض ! ولعل هذا هو الأقرب لمدلول الآية لاتساقه مع العجب والدهشة والارتياع والوهلة البادية فى مقالة الجن كلها ، والله أعلم .

طبيعة الإنسان وطبيعة الجان

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾[3].

---

(١) الجن : ١٩ .   (٢) المعارج : ٣٦ - ٣٧ .   (٣) الحجر : ٢٦ - ٢٧ .

يُقَرِّرُ – سبحانه – اختلاف الطبيعتين بين الصلصال – وهو الطين اليابس الذى يصلصل عند نقره ، المتخذ من الطين الرطب الآسن – والنار الموسومة بأنها شعواء مسامة – نار السموم – وفيما بعد سنعلم أن طبيعة الإنسان قد دخل فيها عنصر جديد هو النفخة من روح الله ، أما طبيعة الجان فبقيت من نار السموم .

فأما خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والنفخ فيه من روح الله فكيف كان ؟ فهو مالا ندرى كيفيته ، ولا سبيل إلى تحديد هذه الكيفية بحال من الأحوال .

وقد يقال بالإحالة إلى نصوص القرآن الأخرى فى هذه القضية ، وبخاصة قوله : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾[1] وقوله : ﴿ **وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسْلَهُ من سلالةٍ من ماءٍ مهين** ﴾[2] أن أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض ، ومن عناصره الرئيسية التى تتمثل بذاتها فى تركيب الإنسان الجسدى وتركيب الأحياء أجمعين ، وأن هنالك أطواراً بين الطين والإنسان تشير إليها كلمة « سلالة » ، وإلى هنا وتنتهى دلالة النصوص ، فكل زيادة تحمل عليها ضرب من التمحل ليس القرآن فى حاجة إليه ، وللبحث العلمى أن يمضى فى طريقه بوسائله الميسرة له ، فيصل إلى ما يصل إليه من فروض ونظريات ، يحقق منها ما يجد إلى تحقيقه سبيلاً مضمونة ، ويبدل منها مالا يثبت على البحث والتمحيص ، غير متعارض فى آية نتيجة يحققها مع الحقيقة الأولية التى تضمنها القرآن ، وهى ابتداء خلق هذه السلالة من عناصر الطين ودخول الماء فى تركيبها على وجه اليقين .

فأما كيف ارتقى هذا الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلى أفق الحياة العضوية أولاً ، وإلى أفق الحياة الإنسانية أخيراً ؟ فهنا السر الذى يعجز عن تعليله البشر أجمعون ، وما يزال سر الحياة فى الخلية الأولى خافياً لا يزعم أحد أنه اهتدى إليه ، فأما سر الحياة الإنسانية العليا بما فيها من مدارك وإشراقات وطاقات متميزة على الخلائق الحيوانية جميعاً ، تفوقاً حاسماً فاصلاً منذ بدء ظهور الإنسان ، فأما هذا السر فما تزال النظريات تخبط حوله ولا

---

(١) المؤمنون : ١٢ . (٢) السجدة : ٧ – ٨ .

تملك الآن أن تنكر تفرد الإنسان بخصائصه منذ نشأته كما أنها لا تملك أن تثبت الصلة المباشرة بينه وبين أى كائن قبله ، مما يزعم بعضها أن الإنسان « تطور » عنه ، كما أنها لا تملك نفى الاحتمال الآخر : وهو نشأة الأجناس منفصلة منذ البدء - وإن كان بعضها أرق من بعض - ثم نشأة هذا الإنسان متفرداً منذ البدء أيضاً والقرآن الكريم يُفَسِّرُ لنا ذلك التفرد ، هذا التفسير المجمل الواضح البسيط :

﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ..** ﴾[1]..

فهى روح الله تنقل هذا التكوين العضوى الوضيع إلى ذلك الأفق الإنسانى الكريم ، منذ بدء التكوين ، وتجعله ذلك الخلق المتفرد الذى توكل إليه الخلافة فى الأرض بحكم تفرد خصائصه منذ بدء التكوين .

كيف ؟..

ومتى كان فى نطاق هذا المخلوق الإنسانى أن يدرك كيف يفعل الخالق العظيم ؟

وهنا نصل إلى الأرض الصلبة التى نستوى عليها مطمئنين -

لقد كان خلق الشيطان - من قبل - من نار السموم ، فهو سابق إذن للإنسان فى الخلق ، هذا ما نعلمه ، أما كيف هو وكيف كان خلقه ، فذلك شأن آخر ، ليس لنا أن نخوض فيه ، إنما ندرك من صفاته بعض صفات نار السموم ، ندرك من صفاته التأثير فى عناصر الطين بحكم أنه من النار ، والأذى والمسارعة فيه بحكم أنها نار السموم ، ثم تنكشف لنا من ثنايا القصة صفة الغرور والاستكبار ، وهى ليست بعيدة فى التصور عن طبيعة النار !

ولقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول إلى صلصال . ثم من النفخة العلوية التى فرقت بينه وبين سائر الأحياء ، ومنحته خصائصه الإنسانية ، التى أفردته منذ نشأته عن كل الكائنات الحية ، فسلك طريقاً غير طريقها منذ الابتداء ، بينما بقيت هى فى مستواها الحيوانى لا تتعداه !

هذه النفخة التى تصله بالملأ الأعلى ، وتجعله أهلاً للاتصال بالله ، وللتلقى

---

(١) الحجر : ٢٩ .

عنه ، ولتجاوز النطاق المادى الذى تتعامل فيه العضلات والحواس ، إلى النطاق التجريدى الذى تتعامل فيه القلوب والعقول ، والتى تمنحه ذلك السر الخفى الذى يسرب به وراء الزمان والمكان ، ووراء طاقة العضلات والحواس ، إلى ألوان من المدركات وألوان من التصورات غير محدودة فى بعض الأحيان .

ذلك كله مع ثقلة الطين فى طبعه ، ومع خضوعه لضرورات الطين وحاجاته : من طعام وشراب ولباس وشهوات ونزوات ، ومن ضعف وقصور وما ينشئه الضعف والقصور من تصورات ونزعات وحركات ، وهذا مع أن هذا الكائن « مركّب » لا طبيعة « المخلوط » أو « الممزوج » ، ولابد من ملاحظة هذه الحقيقة ودقة تصورها كلما تحدثنا عن تركيب الإنسان من الطين ومن النفخة العلوية التى جعلت منه هذا المخلوق الفريد التكوين - إنه لا انفصال بين هذين الأفقين فى تكوينه ، ولا تصرف لأحدهما بدون الآخر فى حالة واحدة من حالاته ، إنه لا يكون طيناً خالصاً فى لحظة ، ولا يكون روحاً خالصاً فى لحظة ، ولا يتصرف تصرفاً واحداً إلا بحكم تركيبه الذى لا يقع فيه الانفصال !

والتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه والعناصر العلوية هو الأفق الأعلى الذى يطلب إليه أن يبلغه ، وهو الكمال البشرى المقدر له ، فليس مطلوباً منه أن يتخلى عن طبيعة أحد عنصريه ومطالبه ليكون مَلَكاً أو ليكون حيواناً ، وليس واحد منهما هو الكمال المنشود للإنسان ، والارتفاع الذى يخل بالتوازن المطلق نقص بالقياس إلى هذا المخلوق وخصائصه الأصيلة ، والحكمة التى من أجلها خلق على هذا النحو الخاص .

والذى يحاول أن يعطل طاقاته الجسدية الحيوية هو كالذى يحاول أن يعطل طاقاته الروحية الطليقة .. كلاهما يخرج على سواء فطرته ، ويريد من نفسه مالم يرده الخالق له ، وكلاهما يُدَمِّر نفسه بتدمير ذلك المركب فى كيانها الأصيل ، وهو محاسب أمام الله على هذا التدمير .

من أجل ذلك أنكر الرسول (ﷺ) على من أراد أن يترهبن فلا يقرب النساء ، ومن أراد أن يصوم الدهر فلا يفطر ، ومن أراد أن يقوم الليل فلا

ينام ، أنكر عليهم كما ورد فى حديث عائشة رضى الله عنها وقال : « فمن رغب عن سُنَّتى فليس منى »[1].

وقد أقام الإسلام شريعته للإنسان على أساس تكوينه ذاك ، وأقام له عليها نظاماً بشرياً لا تدمر فيه طاقة واحدة من طاقات البشر ، إنما قصارى هذا النظام أن يحقق التوازن بين هذه الطاقات ، لتعمل جميعها فى غير طغيان ولا ضعف ، ولا اعتداء من إحداها على الأخرى ، فكل اعتداء يقابله تعطيل ، وكل طغيان يقابله تدمير ، والإنسان حفيظ على خصائص فطرته مسئول عنها أمام الله ، والنظام الذى يقيمه الإسلام للناس حفيظ على هذه الخصائص التى لم يهبها الله جزافاً للإنسان .

والذى يريد قتل النوازع الفطرية الحيوانية فى الإنسان يدمر كيانه المتفرد ، ومثله الذى يريد قتل النوازع الفطرية الخاصة بالإنسان دون الحيوان من الاعتقاد فى الله والإيمان بالغيب الذى هو من خصائص الإنسان ، والذى يسلب الناس عقائدهم يدمر كينونتهم البشرية ، كالذى يسلب الناس طعامهم وشرابهم ومطالبهم الحيوية سواء ، وكلاهما عدو « للإنسان » يجب أن يطارده كما يطارد الشيطان !.

إن الإنسان حيوان وزيادة ، فله مثل مطالب الحيوان ، وله ما يقابل هذه الزيادة ، وليست هذه المطالب دون هذه هى « المطالب الأساسية » كما يزعم أعداء الإنسان من أصحاب المذاهب المادية « العلمية » .

هذه بعض الخواطر التى تطلقها فى النفس حقيقة تكوين الإنسان ، كما

---

(١) أخرجه الطبرانى ٣٢٠/٢ ، و « مشكل الآثار » ٨٨/٢ ، و « المجمع » ٢٥٩/٢ ، و « الكنز » (٥٣٨٣) .

وأخرجه بلفظ : « من رغب عن سنتى فليس منى » البخارى ٢/٧ ، ومسلم (النكاح) ٥ ، والنسائى (النكاح) ب ٤ ، وأحمد ١٥٨/٢ و ٢٤١/٣ و ٢٥٩ و ٢٨٥ و ٤٠٩/٥ ، والدرامى ١٣٣/٢ ، والبيهقى ٧٧/٧ ، و « الدر المنثور » ١٧/٢ و ٣٠٧ ، و « الإتحاف » ٥٤/٥ و ١٦٠ و ٢٨٦ و ٢٩٥/٧ و ٤٠٥/٨ و ٤٠٦ و ٣٥١/٩ ، و« الفقيه والمتفقه » ١٤٤/١ ، و « الترغيب » ٨٧/١ ، و « المغنى عن حمل الأسفار » ٣٤٩/١ و ٢٢/٢ ، و « مشكل الآثار » ١٣٦/٢ ، و « الشفا » ٣٧/٢ ، والطبرى ٧/٧ ، والقرطبى ١٩/٢ و ٣٢٨/٩ و ٨٧/١٨ ، وابن خزيمة (١٩٧) والخطيب ٣٣٠/٣ ، و « الحلية » ٢٢٨/٣ ، وابن أبى عاصم ٣١/١ ، وابن كثير ١٦٠/٣ و ٣٨٩/٤ وغيرهم .

يقررها القرآن ، نمر بها سراعاً ، حتى لا نوقف تدفق النص القرآنى فى عرض مشاهد القصة الكبرى ، راجين أن نعود إليها ببعض التعقيبات فى نهايتها :

لقد قال الله للملائكة :

﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[1].

وقد كان ما قاله الله ، فقوله تعالى إرادة ، وتوجه الإرادة ينشىء الخلق المراد ، ولا نملك أن نسأل كيف تلبست نفخة الله الأزلى الباق بالصلصال المخلوق الفانى ، فالجدل على هذا النحو عبث عقلى ، بل عبث بالعقل ذاته ؛ وخروج به عن الدائرة التى يملك فيها أسباب التصور والإدراك والحكم ، وكل ما ثار من الجدل حول هذا الموضوع وكل ما يثور إن هو إلا جهل بطبيعة العقل البشرى وخصائصه وحدوده ، وإقحام له فى غير ميدانه ، ليقيس عمل الخالق إلى مدركات الإنسان ، وهو سفه فى إنفاق الطاقة العقلية ، وخطأ فى المنهج من الأساس ، إنه يقول : كيف يتلبس الخالد بالفانى ، وكيف يتلبس الأزلى بالحادث ؟ ثم ينكر أو يثبت ويعلل ! بينما العقل الإنسانى ليس مدعواً أصلاً للفصل فى الموضوع ، لأن الله يقول : إن هذا قد كان ، ولا يقول : كيف كان ، فالأمر إذن ثابت ولا يملك العقل البشرى أن ينفيه ، وكذلك هو لا يملك أن يثبته بتفسير من عنده – غير التسليم بالنص – لأنه لا يملك وسائل الحكم ، فهو حادث ، والحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلى فى ذاته ، ولا على الأزلى فى خلقه للحادث ، وتسليم العقل ابتداء بهذه البديهية أو القضية – وهى أن الحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلى فى أى صورة من صوره ، يكفى ليكف العقل عن إنفاق طاقته سفهاً فى غير مجاله المأمون .

فلننظر بعد ذلك ماذا كان :

﴿ فَسَجَدَ الملائكَةُ كُلُّهُم أجمعُون ﴾[2]..

كما هى طبيعة هذا الخلق – الملائكة – الطاعة المطلقة بلا جدل أو تعويق .

﴿ إلَّا إبليسَ أبى أن يَكُون معَ السَّاجِدِين ﴾[3]..

---

(١) الحجر : ٢٨ – ٢٩ .   (٢) الحجر : ٣٠ .   (٣) الحجر : ٣١ .

وإبليس خلق آخر غير الملائكة ، فهو من نار وهم من نور ، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهو أبى وعصى ، فليس هو من الملائكة بيقين ، أما الاستثناء هنا فليس على وجهه ، إنما هو كما تقول : حضر بنو فلان إلّا أحمد ، وليس منهم ، إنما هو معهم فى كل مكان أو ملابسة ، وأما أن الأمر المذكور الملائكة : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة** ﴾. فكيف شمل إبليس ! فإن صدور الأمر إلى إبليس يدل عليه ما بعده ، وقد ذكر صريحاً فى سورة الأعراف : ﴿ **قالَ ما منعكَ ألّا تسجدَ إذ أمرتُك** ﴾[1]. وأسلوب القرآن يكتفى بالدلالة اللاحقة فى كثير من المواضع ، فقول الله تعالى له : ﴿ **ما مَنَعَكَ ألا تسجد إذ أمرتك** ﴾ . قاطع فى أن الأمر قد صدر له ، وليس من الضرورى أن يكون هذا الأمر هو أمره للملائكة ، فقد يصدر إليه معهم لاجتماعه بهم فى ملابسة ما ، وقد يصدر إليه منفرداً ولا يذكر تهويناً لشأنه وإظهاراً للملائكة فى الموقف ، ولكن المقطوع به من النصوص ومن دلالة تصرفه أنه ليس من الملائكة ، وهذا ما نختاره .

وعلى أية حال فنحن نتعامل هنا مع مُسلّماتٍ غيبية لا نملك تصور ماهياتها ولا كيفياتها فى غير حدود النصوص ، لأن العقل كما أسلفنا لا سبيل له فى هذا المجال بحال من الأحوال .

﴿ **قالَ يا إبليسُ مالكَ ألّا تكُونَ مع الساجدين • قالَ لم أكُن لأَسْجُدَ لبشرٍ خلقتَهُ من صلصالٍ من حمإٍ مسنُونٍ** ﴾[2]..

وصرحت طبيعة الغرور والاستكبار والعصيان فى ذلك المخلوق من نار السموم ، وذكر إبليس الصلصال والحمأ ، ولم يذكر النفخة العلوية التى تلابس هذا الطين ، وتشامخ برأسه المغرور يقول : إنه ليس من شأنه فى عظمته أن يسجد لبشر خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون !.

وكان ما ينبغى أن يكون : ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[3].

(١) الأعراف : ١٢ . (٢) الحجر : ٣٢ – ٣٣ . (٣) الحجر : ٣٤ – ٣٥ .

عندئذ تتبدى خليقة الحقد وخليقة الشر :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾[1]..

لقد طلب النظرة إلى يوم البعث ، لا ليندم على خطيئته فى حضرة الخالق العظيم ، ولا ليتوب إلى الله ويرجع وَيُكَفِّر عن إثمه الجسيم ، ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء مالعنه الله وطرده ، يربط لعنة الله له بآدم ، ولا يربطها بعصيانه لله فى تبجح نكير !.

وكانت وما زالت المعركة ..

إن قصة البشرية الكبرى تستحق تعقيبات مفصلة لا نملك أن نستطرد فيها - فى ظلال القرآن - فنكتفى أن نلم بها إلماماً ، وعلى أية حال ، فإن مجموع النصوص القرآنية فى خلق آدم عليه السلام ، وفى نشأة الجنس البشرى ، ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة ، كان مصاحباً لخلقه ، وأن الترقى « الإنسانى » كان ترقياً فى بروز هذه الخصائص ، ونموها ، وتدريبها ، واكتسابها إلى الإنسان . كما تقول الداروينية .

إن الزعم بأن الإنسان مجرد حيوان متطور عن حيوان ! هى التى جعلت الإعلان الماركسى يذكر أن مطالب الإنسان الأساسية هى الطعام والشراب والمسكن والجنس ! فهذه فعلاً هى مطالب الحيوان الأساسية ! ولا يكون الإنسان فى وضع أحقر مما يكون وفق هذه النظرة ! ومن ثم تهدر كل حقوقه المترتبة على تفرده عن الحيوان بخصائصه الإنسانية . تهدر حقوقه فى الاعتقاد الدينى ، وفى حرية الفكر والرأى وفى اختيار نوع العمل ومكان الإقامة .. إلخ .

فإما النظرة الإسلامية إلى الإنسان وهى تقوم على أساس تفرده بخصائصه الإنسانية إلى جانب ما يشارك فيه الحيوان من التكوين العضوى .

---

(١) الحجر : ٣٦ - ٣٨ .

امتنان الله على الجن والإنس بنعمة الإيجاد والإنشاء

إن سورة الرحمٰن كلها إعلان عام فى ساحة الوجود الكبير ، إعلان ينطلق من الملأ الأعلى فتتجاوب به أرجاء الوجود ويشهده كل من فى الوجود وكل مافى الوجود ..

وعند هذا المقطع من تعداد أنعم الله وآلائه : تعليم القرآن وخلق الإنسان ، وتعليمه البيان ، وتنسيق الشمس والقمر بحسبان ، ورفع السماء ووضوع الميزان ، ووضع الأرض للأنام ، وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان .. عند هذا المقطع يهتف بالجن والإنسان ، فى مواجهة الكون وأهل الكون : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ ، وهو سؤال للتسجيل والإشهاد ، فما يملك إنس ولا جان أن يكذب بآلاء الرحمٰن فى مثل هذا المقام ..

ثم ينتقل من الامتنان عليهما بآلاء الله فى الكون ، إلى الامتنان عليهما بآلائه فى ذوات أنفسيهما ، وفى خاصة وجودهما وإنشائهما :

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1] ..

ونعمة الإيجاد والإنشاء أصل النعمة ، والمسافة بين الوجود وعدم الوجود ابتداء مسافة لا تقاس أبعادها بأى مقياس مما يألفه البشر ، فجميع المقاييس التى فى أيدى البشر أو التى تدركها عقولهم ، هى مقاييس للفارق بين موجود وموجود ، أما المسافة بين الموجود وغير الموجود فلا تدركها مدارك البشر بحال ! ونحسب الجن كذلك ، فإن هم إلا خلق مقاييسه مقاييس المخلوقات ! .

فحين يَمْتَنُّ الله على الجن والإنس بنعمة الإيجاد والإنشاء ، فإنما يمتن عليهما بالنعمة التى تفوق حد الإدراك .

---

(١) الرحمٰن : ١٤ - ١٦ .

ثم يقرر الحق سبحانه مادة خلق الإنس والجن ، وهى كذلك من خلق الله ، والصلصال : الطين إذا يبس وصار له صوت وصلصلة عند الضرب عليه ، وقد تكون هذه حلقة فى سلسلة النشأة من الطين أو من التراب ، كما أنها قد تكون تعبيراً عن حقيقة الوحدة بين مادة الإنسان ومادة الأرض فى عناصر التكوين .

وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوى من العناصر ما تحتويه الأرض ، فهو يتكون من الكربون ، والأكسجين ، والأيدروجين ، والفوسفور ، والكبريت ، والآزوت ، والكالسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والكلور ، والمغنسيوم ، والحديد ، والمنجنيز ، والنحاس ، واليود ، والفلورين ، والكوبالت ، والزنك ، والسلكون ، والألمنيوم ، وهذه نفسها هى العناصر المكونة للتراب ، وإن اختلفت نسبها فى الإنسان عن التراب ، وفى إنسان عن آخر ، إلا أن أصنافها واحدة .

إلا أن هذا الذى أثبته العلم لا يجوز أن يؤخذ على أنه التفسير الحتمى للنص القرآنى ، فقد تكون الحقيقة القرآنية تعنى هذا الذى أثبته العلم ، أو تعنى شيئاً آخر سواه ، وتقصد إلى صورة أخرى من الصور الكثيرة التى يتحقق بها معنى خلق الإنسان من تراب ، أو طين أو صلصال .

والذى ننبه إليه بشدة هو ضرورة عدم قصر النص القرآنى على كشف علمى بشرى ، قابل للخطأ والصواب ، وقابل للتعديل والتبديل ، كلما اتسعت معارف الإنسان وكثرت وتحسنت وسائله للمعرفة ، فإن بعض المخلصين من الباحثين يسارعون إلى المطابقة بين مدلول النصوص القرآنية والكشوف العلمية – تجريبية أو افتراضية – بنية بيان ما فى القرآن من إعجاز ، فالقرآن معجز سواء طابقت الكشوف العلمية المتأرجحة نصوصه الثابتة أم لم تطابقها ، ونصوصه أوسع مدلولاً من حصرها فى نطاق تلك الكشوف القابلة دائماً للتبديل والتعديل ، بل للخطأ والصواب من الأساس ! وكل ما يستفاد من الكشوف العلمية فى تفسير نصوص القرآن ، هو توسيع مدلولها فى تصورنا كلما أطلعنا العلم على شىء مما تشير إليه إشارات مجملة من آيات الله فى الأنفس والآفاق ، دون أن يحمل النص القرآنى على أن مدلوله هو هذا الذى كشفه

العلم ، إنما جواز أن يكون هذا بعض ما يشير إليه .

فأما خلق الجان من مارج من نار ، فمسألة خارجة عن حدود العلوم البشرية ، والمصدر الواحد فيها هو هذا القرآن ، خبر الله الصادق ، الذى خلق وهو أعلم بمن خلق .. المارج : المشتعل بألسنة النار مع الرياح ! وللجان قدرة على الحياة فى هذه الأرض مع الإنس ، ولكننا لا ندرى كيف يعيش الجان وقبيله ، فأما الأمر المستيقن فهو أنهم مخاطبون بهذا القرآن كما سبق بيانه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعُون القرآنَ ...** ﴾ ، وكما هو الحال هنا فى سورة الرحمٰن .

والخطاب هنا للجن والإنس ، لتذكيرهما بنعمة الوجود ، كل من الأصل الذى نشأه الله منه ، وهى النعمة التى تقوم عليها سائر النعم ، ومن ثم يعقب عليها بتعقيب التسجيل والإشهاد العام : ﴿ **فَبأىِّ آلآءِ ربِّكُمَا تكذِّبانِ** ﴾ ولا تكذيب فى هذا المقام المشهود !.

تهديد فيه وعيد للجن والإنس

قال تعالى :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ (٣٣) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1].

﴿ **سنفرُغُ لكم أيها الثّقلاَن** ﴾ .. ياللهول المرعب المزلزل ، الذى لا يثبت له إنس ولا جان ، ولا تقف له الجبال الرواسى ولا النجوم والأفلاك !

---

(١) الرحمٰن : ٣١ - ٣٦ .

الله جل جلاله ، الله القوى القادر ، القهار الجبار ، الكبير المتعال ، الله سبحانه يفرغ لحساب هذين الخلقين الضعيفين الصغيرين : الجن والإنس ، فى وعيد وانتقام ! .

إنه أمر ، إنه هول ، إنه فوق كل تصور واحتمال ! .

والله سبحانه ليس مشغولاً فيفرغ ، وإنما هو تقريب الأمر للتصور البشرى ، وإيقاع الوعيد فى صورة مذهلة مزلزلة ، تسحق الكيان بمجرد تصورها سحقاً ، فهذا الوجود كله نشأ بكلمة ، كلمة واحدة ، كن فيكون ، وتدميره أو سحقه لا يحتاج إلا واحدة كلمح البصر .. فكيف يكون حال الثقلين ، والله يفرغ لهما وحدهما ليتولاهما بالانتقام ؟ .

وفى ظل هذا الهول الرعيب يسأل الثقلين المسكينين : ﴿ **فبأىّ آلآءِ ربّكما تكذّبان** ﴾ ! .

ثم يمضى الإيقاع المرعب المزلزل ، يتحداهما أن ينفذا من أقطار السموات والأرض : ﴿ **يامعشَرَ الجنِّ والإنسِ إن استَطعتُم أن تنفُذُوا مِن أقطَار السموات والأرضِ فانفُذُوا** ﴾ ، وكيف ؟ وأين ؟ ﴿ **لا تَنفَذُون إلَّا بسُلطَان** ﴾ .

ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان .

ومرة أخرى يواجههما بالسؤال : ﴿ **فَبأىِّ آلآءِ ربّكما تكذّبَان** ﴾ ؟

وهل بقى فى كيانهما شىء يكذب أو يهم بمجرد النطق والبيان ؟

ولكن الجملة الساحقة تستمر إلى نهايتها ، والتهديد الرعيب يلاحقهما والمصير المردى يتمثل لهما : ﴿ **يُرسَلُ عليكُمَا شُوَاظٌ من نارٍ ونحاسٌ فلا تنتَصِرَان** ﴾ ، ﴿ **فَبأىِّ آلآءِ ربّكما تكذّبَان** ﴾ ؟.

المجرمون من الجن والإنس معروفون من غير سؤال

قال تعالى :

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ

﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾[1].

ومن هنا إلى نهاية السورة تبدأ مشاهد اليوم الآخر ، مشهد الانقلاب الكونى يوم القيامة ، وما يعقبه من مشاهد الحساب ، ومشاهد العذاب والثواب .

ويبدأ استعراض المشاهد بمشهد كونى يتناسب مع مطالع السورة ومجالها الكونى :

﴿ **فإذَا انشقَّتِ السَّماءُ فكانت وردةً كالدِّهانِ** ﴾ .

وردة حمراء ، سائلة كالدهن ، ومجموع الآيات التى وردت فى صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل فى هذه الأفلاك والكواكب ، بعد انفلاتها من النسق الذى يحكمها الآن ، وينسق بين مداراتها وحركاتها ، منها هذه الآية ، ومنها ﴿ **إذَا رُجَّتِ الأرضُ رجًّا . وبُسَّتِ الجبالُ بسًّا . فكانَت هَبَاءً منبثاً** ﴾[2]. ومنها : ﴿ **فإذا بَرِقَ البَصرُ . وخَسَفَ القمر . وجُمِعَ الشَّمسُ والقمرُ** ﴾[3]، ومنها : ﴿ **إذَا الشَّمسُ كُوِّرَت . وَإذَا النُّجُومُ انكَدَرَت . وإذَا الجبالُ سُيِّرَت . وإذَا العِشَارُ عُطلت . وإذَا الوحوشُ حُشِرَت . وإذَا البِحَارُ سُجِّرَت** ﴾[4]، ومنها : ﴿ **إذَا السَّماءُ انفطَرَت . وإذا الكواكِبُ انتثرت . وإذَا البِحَارُ فُجِّرت** ﴾[5]، ومنها : ﴿ **إذَا السَّماءُ انشقَّت . وأَذِنت لرَبِّها وحُقَّت . وإذَا الأرْضُ مُدَّت . وأَلْقَت ما فِيها وتَخلَّت . وأَذِنت لربِّها وحُقَّت** ﴾[6]، وهذه وغيرها تشير إلى ذلك الحادث الهائل الذى سيقع فى الكون كله ، ولا يعلم حقيقته إلا الله .

﴿ **فإذَا انشَقَّت السَّماءُ فكانَتْ وردةً كالدِّهَان** ﴾ ، ﴿ **فَبأَىِّ آلآءِ ربِّكما تُكذِّبَان** ﴾ ، ولا تكذيب عندئذ ولا نكران .

---

(١) الرحمن : ٣٧ - ٤١ . (٢) الواقعة : ٤ - ٦ . (٣) القيامة : ٧
(٤) التكوير : ١ - ٦ . (٥) الانفطار : ١ - ٣ . (٦) الانشقاق : ١ - ٥

﴿ فَيَومئذٍ لا يُسأَلُ عن ذنبِهِ إنسٌ ولا جَانٌّ ﴾ ، وذلك فى موقف من مواقف ذلك اليوم المشهود ، الذى ستكون فيه مواقف شتى ، منها ما يسأل فيه العباد ، ومنها مالا يسألون فيه عن شىء ، ومنها ما تجادل كل نفس عن نفسها ، وما تلقى به التبعة على شركائها ، ومنها مالا يسمح فيه بكلمة ولا جدال ولا خصام ! فهو يوم طويل مديد ، وكل موقف من مواقفه هائل مشهود .

وهنا موقف : لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ، ذلك حين تعرف صفة كل فرد وعمله ، وتبدو فى الوجوه معالم الشقوة سواداً ، ومعالم النجوة بياضاً ، ويظهر هذا وذاك فى سيما الوجوه ، ففى هذا الموقف هل من تكذيب ونكران : ﴿ فَبِأَىِّ آلآءِ رَبِّكُمَا تكذِّبَان ﴾ !.

﴿ يُعْرَفُ المجرِمُونَ بسيمَاهُم فَيُؤْخذُ بالنَّواصى والأَقْدَامِ ﴾ ،

وهو مشهد عنيف ومع العنف الهوان ، حيث تجمع الأقدام إلى الجباه ، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار فهل حينذاك من تكذيب أو نكران ؟ .

إثبات نكاح الجنى للإنسى

قال تعالى :

﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾[1]...

فهن عفيفات الشعور والنظر ، لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن ، مصونات لم يمسسهن إنس ولا جن .

وقال تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾[2]..

---

(١) الرحمٰن : ٥٦ . (٢) الرحمٰن : ٧٢ - ٧٤ .

فهن يشتركن مع زميلاتهن هناك فى الصون والعفاف .

الاستعاذة من وسوسة الجن والناس

قال تعالى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾[1].

الاستعاذة فى هذه السورة برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، والمستعاذ منه هو : شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجِنَّة والناس .

والاستعاذة بالرب ، الملك ، الإله ، تستحضر من صفات الله سبحانه ما به يدفع الشر عامة ، وشر الوسواس الخناس خاصة .

فالرب هو المربى والموجه والراعى والحامى ، والملك هو المالك الحاكم المتصرف ، والإله هو المستعلى المستولى المتسلط .. وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذى يتدسس إلى الصدور ، وهى لا تعرف كيف تدفعه لأنه مستور .

والله رب كل شىء ، وملك كل شىء ، وإله كل شىء ، ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى فى موقف العياذ والاحتماء .

والله برحمة منه يوجه رسوله (ﷺ) وأمته إلى العياذ به والالتجاء إليه ، مع استحضار معانى صفاته هذه ، من شر خفى الدبيب ، لا قبل لهم بدفعه إلا بصون من الرب المالك الإله ، فهو يأخذهم من حيث لا يشعرون ، ويأتيهم من حيث لا يحتسبون ، والوسوسة : الصوت الخفى ، والخنوس : الاختباء والرجوع ، والخناس هو الذى من طبعه كثرة الخنوس .

(١) سورة الناس : ١ – ٦ .

وقد أطلق النص الصفة أولاً : ﴿ **الوَسْوَاس الخَنَّاس** ﴾ ، وحدد عمله : ﴿ **الَّذِى يُوَسْوِسُ فى صُدُورِ النَّاس** ﴾ ، ثم حدد ماهيته : ﴿ **من الجِنَّةِ والنَّاس** ﴾ ، وهذا الترتيب يثير فى الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس ، بعد إطلاق صفته فى أول الكلام ، ولإدراك طريقة فعله التى يتحقق بها شره ، تأهباً لدفعه أو مراقبته !

والنفس حين تعرف - بعد هذا التشويق والإيقاظ - أن الوسواس الخناس يوسوس فى صدور الناس خفية وسراً ، وأنه هو الجِنَّة ، ويوسوسون وسوسة الشياطين ، النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع ، وقد عرفت المكمن والمدخل والطريق !

ووسوسة الجِنَّة نحن لا ندرى كيف تتم ، ولكنا نجد آثارها فى واقع النفوس وواقع الحياة ، ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة قديمة ، وأن الشيطان قد أعلنها حرباً تنبثق من خليقة الشر فيه ، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان ! وأنه قد استصدر بها من الله إذناً ، فأذن فيها سبحانه لحكمة يراها ! ولم يترك الإنسان فيها مجرداً من العدة ، فقد جعل له من الإيمان جُنة ، وجعل له من الذكر عدة ، وجعل له من الاستعاذة سلاحاً ، فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده الملوم !

عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ﷺ) : « الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس »[1] .

وأما وسوسة الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير ، ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين !

رفيق السوء الذى يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يحترس ، لأنه الرفيق المأمون !

وحاشية الشر التى توسوس لكل ذى سلطان حتى تتركه طاغية جباراً مفسداً فى الأرض ، مهلكاً للحرث والنسل ! .

والنمام الواشى الذى يزين الكلام ويزحلقه ، حتى يبدو كأنه الحق الصراح الذى لا مرية فيه .

---

(١) أخرجه فى « مشكاة المصابيح » (٢٢٨١) ، والقرطبى ٢٦٢/٢٠ وقد ذكره فى «الظلال» ٤٠١١/٦ ونسبه للبخارى معلقاً ، وقد بحثت عنه ولم أجده .

وبائع الشهوات الذى يتدسس من منافذ الغريزة فى إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب وعون الله .

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها ، ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التى يعرفونها أو يتحسسونها وهم شر من الجِنَّةِ وأخفى منهم دبيباً !.

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية ، ومن ثم يدله الله على عدته وجنته وسلاحه فى المعركة الرهيبة ! .

وهناك لفتة ذات مغزى فى وصف الوسواس بأنه « الخناس » فهذه الصفة تدل من جهة على تخفية واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس ، ولكنها من جهة أخرى توحى بضعفه أمام من يستيقظ لمكره ، ويحمى مداخل صدره ، فهو — سواء كان من الجِنَّةِ أم كان من الناس — إذا ووجه خنس ، وعاد من حيث أتى ، وقبع واختفى ، أو كما قال الرسول الكريم فى تمثيله المصور الدقيق : « فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس » .

وهذه اللفتة تقوى القلب على مواجهة الوسواس ، فهو خناس ، ضعيف أمام عدة المؤمن فى المعركة .

ولكنها — من ناحية أخرى — معركة طويلة لا تنتهى أبداً ، فهو أبداً قابع خانس ، مترقب للغفلة ، واليقظة مرة لا تغنى عن اليقظات ، والحرب سجال إلى يوم القيامة ، كما صورها القرآن الكريم فى مواضع شتى ، ومنها هذه الصورة العجيبة فى سورة الإسراء :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ

مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِى ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[1].

وهذا التصور لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها - سواء عن طريق الشيطان مباشرة أو عن طريق عملائه من البشر - من شأنه أن يشعر الإنسان أنه ليس مغلوباً على أمره فيها ، فإن ربه ومَلِكَهُ وإلهه مسيطر على الخلق كله ، وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب ، فهو آخذ بناصيته ، وهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم ، فأما من يذكرونه فهم فى نجوة من الشر ودواعيه الخفية ، فالخير إذن يستند إلى القوة التى لا قوة سواها ، وإلى الحقيقة التى لا حقيقة غيرها ، يستند إلى الرب الملك الإله ، والشر يستند إلى وسواس خناس ، يضعف عن المواجهة ، ويخنس عند اللقاء ، وينهزم أمام العياذ بالله .

وهذا أكمل تصور للحقيقة القائمة عن الخير والشر ، كما أنه أفضل تصور يحمى القلب من الهزيمة ، ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة .

سورة الفلق وسورة الناس حصن حصين

سورة الفلق وسورة الناس توجيه من الله سبحانه وتعالى لنبيه (ﷺ) ابتداء وللمؤمنين من بعده جميعاً ، للعياذ بكنفه ، واللياذ بحماه ، من كل مخوف : خاف وظاهر ، مجهول ومعلوم ، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل ، وكأنما يفتح الله سبحانه لهم حماه ، ويبسط لهم كنفه ، ويقول لهم ، فى مودة وعطف : تعالوا إلى هنا ، تعالوا إلى الحمى ، تعالوا إلى مأمنكم الذى تطمئنون فيه ، تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف وأن لكم أعداء وأن حولكم مخاوف وهنا .. هنا الأمن والطمأنينة والسلام .

---

(١) الإسراء : ٦١ - ٦٥ .

وفى قصة نزولها وقصة تداولها وردت عدة آثار ، تتفق كلها مع هذا الظل الذى استروحناه ، والذى يتضح من الآثار المروية أن رسول الله (ﷺ) استروحه فى عمق وفرح وانطلاق :

عن عقبة بن عامر ، أن رسول الله (ﷺ) : « ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم يُرَ مثلهن قط ؟ ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾ ، و﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾»[1].

وعن جابر قال : قال لى رسول الله (ﷺ) : « اقرأ ياجابر » قلت : ماذا بأبى أنت وأمى ؟ قال : « اقرأ قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » فقرأتهما ، فقال : « اقرأ بهما فلن تقرأ بمثلهما »[2].

وعن عائشة ، أن النبى (ﷺ) كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما : « قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات[3].

□ ✶ □ ✶ □ ✶ □

---

(١) أخرجه مسلم (صلاة المسافرين) ٢٦٤ ، و « مشكاة المصابيح » (٢١٣١) و « شرح السنة » ٤٨٠/٤ ، وابن كثير ٥٥٠/٨ ، والبغوى ٣٢٩/٧ ، وأحمد ١٥١/٤ ، و « تاريخ أصفهان » ٢٦١/١ ، و « الظلال ، ٤٠٠٦/٦ ونسبه لمالك والترمذى وأبو داود والنسائى .

(٢) أخرجه النسائى ٢٥٢/٨ و ٢٥٤ ، وأحمد ١٤٩/٤ و ١٥١ ، و « موارد الظمآن » (١٧٧٨) ، وابن كثير ٥٥١/٨ و ٥٥٣ ، و « مشكل الآثار » ٣٦/١ ، و « الدر المنثور » ٤١٦/٦ و ٤١٧ ، و « الكنز » (٢٧٤٤) ، و « الظلال » ٤٠٠٦/٦ .

(٣) أخرجه البخارى ٢٣٣/٦ ، وأبو داود (٥٠٥٦) ، والترمذى (٣٤٠٢) و « الدر المنثور » ٤١٥/٦ ، والبغوى ٣٥٦/٧ ، و « شرح السنة » ٤٧٨/٤ ، وابن السنى (٦٩١) ، و « فتح البارى » ٦٢/٩ ، و « الكلم الطيب » (٣٠) ، وابن كثير ٥٤٦/٨ ، و « الظلال » ٤٠٠٩/٦ .

خاتمة

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

اعلم أن وجود الجن ثابت بطرق كثيرة غير دلالة الكتاب والسنة ، فإن من الناس من رآهم ، وفيهم من رأى من رآهم ، وثبت ذلك عنده بالخبر واليقين .

ومن الناس من كلمهم وكلموه ، ومن الناس من يأمرهم وينهاهم ويتصرف فيهم : وهذا يكون للصالحين وغير الصالحين ، ولو ذكرت ما جرى لى ولأصحابى معهم لطال الخطاب ..

وكذلك ما جرى لغيرنا ، لكن الاعتماد على الأجوبة العلمية يكون على ما يشترك الناس فى علمه ، لا يكون بما يختص بعلمه المجيب ، إلا أن يكون الجواب لمن يصدقه فيما يخبر به .

والجان المؤمنين مأمورون بأعمال زائدة على التصديق ، ومنهيون عن أعمال غير التكذيب ، فهم مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم ، فإنهم ليسوا مماثلى الإنس فى الحد والحقيقة ، فلا يكون ما أمِرُوا به ونُهوا عنه مساوياً لما على الإنس فى الحد ، لكنهم مشاركون الإنس فى جنس التكليف بالأمر والنهى ، والتحليل والتحريم ، وهذا مالم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين .

وكذلك لم يتنازعوا أنَّ أهل الكفر والفسوق والعصيان منهم يستحقون لعذاب النار ، كما يدخلها من الآدميين ، لكن تنازعوا فى أهل الإيمان منهم ، فذهب الجمهور من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وأبى يوسف ومحمد : إلى أنهم يدخلون الجنة ، وروى فى حديث رواه الطبرانى « أنهم يكونون فى ربض الجنة ، يراهم الإنس من حيث لا يرونهم » .

وذهب طائفة منهم أبو حنيفة - فيما نقل عنه - إلى أن المطيعين منهم يصيرون تراباً كالبهائم ، ويكون ثوابهم النجاة من النار .

وهل فيهم رسل أم ليس فيهم إلا نذر ؟ على قولين :

فقيل : فيهم رسل لقوله تعالى : ﴿ يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم .. ﴾[1].

---

(١) الأنعام : ١٣٠ .

وقيل : الرسل من الإنس ، والجن فيهم النذر ، وهذا أشهر ، فإنه أخبر عنهم باتباع دين محمد (ﷺ) ، وأنهم ﴿ ولّوا إلى قومهم منذرين * قالوا ياقومنا إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ﴾[1]... قالوا : وقوله : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾[2]. كقوله : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾[3].. وإنما يخرج من المالح .. وكقوله : ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾[4]. والقمر فى واحدة ..

وأما التكليف بالأمر والنهى والتحليل والتحريم : فدلائله كثيرة ، مثل ما فى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبى (ﷺ) : «أتانى داعى الجن ، فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن ، فانطلقوا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : لكم كل عَظْمٍ ذُكِرَ اسم الله عليه يقع فى أيديكم ، أَوْفَرَ ما يكون ، وكل بَعْرَةٍ علف لدوابكم ، فقال النبى (ﷺ) : لا تستنجوا بالعظم والروث»[5]. وذلك لئلا يفسد عليهم طعامهم وعلفهم ، وهذا يبين إنما أباح لهم من ذلك ما ذكر اسم الله عليه دون مالم يذكر اسم الله عليه .

وقال تعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ - إلى قوله : ﴿ إنى أخاف الله والله شديد العقاب ﴾[6].. فأخبر عن الشيطان أنه يخاف الله ، والعقوبة إنما تكون على ترك مأمور أو فعل محظور وليس هو هنا التصديق ..

وأيضاً فإبليس الذى هو أبو الجن ، لم تكن معصيته تكذيباً ، فإن الله أمره بالسجود ، وقد علم أن الله أمره ، ولم يكن بينه وبين الله رسول يكذبه ، ولما امتنع عن السجود لآدم عاقبه الله العقوبة البليغة ، ولهذا قال النبى ﷺ : « إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان يبكى »[7]..

وقد قال تعالى فى قصة سليمان عليه السلام : ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر .. ﴾ إلى قوله : ﴿ عذاب السعير ﴾[8]... وقد جعل فى ذلك ما أمرهم به من طاعة سليمان عليه السلام ، وقد قال تعالى عن إبليس . إنه عصى ولم يقل كذب ، وقد قال تعالى عن الجن : ﴿ يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً

---

(١) الأحقاف : ٢٩ - ٣٠ .   (٢) الأنعام : ١٣٠ .   (٣) الرحمٰن : ٢٢ .

(٤) نوح : ١٦ .

(٥) أخرجه مسلم (الصلاة) ١٥٠ ، والترمذى (٣٢٥٨) ، والبيهقى ١١/١ و ١٠٩ .

(٦) الأنفال : ٤٨ .   (٧) انظر : « مجمع الزوائد » ٢٨٤/٢ .

(٨) سبأ : ١٢ .

أنزلَ من بعد موسى ﴾ ... إلى قوله : ﴿ ومن لا يجب داعى الله فليس بمُعجز فى الأرض ﴾[1]... فأمروا بإجابة داعى الله ، الذى هو الرسول ، والإجابة والاستجابة هى طاعة الأمر والنهى ، وهى العبادة التى خلق لها الثقلان ، كما قال تعالى : ﴿ وما خلقْتُ الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[2]..

ومن قال إن العبادة هى المعرفة الفطرية الموجودة فيها ، وأن ذلك هو الإيمان وهو داخل فى الثقلين فقط : فإن ذلك لو كان كذلك لم يكن فى الثقلين كافر ، والله أخبر بكفر إبليس وغيره من الجن والإنس ، وقد قال تعالى : ﴿ لأمْلأنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾[3].. وأخبر أنه يملؤها منه ومن أتباعه وهذا يبين أنه لا يدخلها إلا من اتبعه ، فعُلم أنَّ من يدخلها من الكفار والفساق من أتباع إبليس ، ومعلوم أن الكفار ليسوا بمؤمنين ، ولا عارفين الله معرفة يكونون بها مؤمنين .

ولكن اللام لبيان الجملة الشرعية ، المتعلقة بالإرادة الشرعية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[4].. وقوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم .. ﴾[5]..

وقد تكون لبيان العاقبة الكونية كما فى قوله : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾[6].. وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾[7].. أى خلق قوما للاختلاف ، وقوماً للرحمة ، وقال : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾[8].. فاللام فى قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[9].. وإن كانت هى اللام فى هذه الآية فإن مدلولها لام إرادة الفاعل ومقصوده ، ولهذا تنقسم فى كتاب الله إلى إرادة دينية ، وإرادة كونية ، كما تنقسم فى كتاب الله تعالى الكلمات ، والأمر والحكم والقضاء ، والتحريم والإذن ، وغير ذلك .

وأيضاً فقوله تعالى : ﴿ يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾[10].. فبين أن الثقلين جميعاً تلت عليهم الرسل آيات الله ، ولهذا لما قرأ رسول الله ﷺ سورة على

---

(١) الأحقاف : ٣٢ . (٢) الذاريات : ٥٦ .

(٣) ص : ٨٥ . (٤) البقرة : ١٨٥ . (٥) النساء : ٢٦ .

(٦) الأنعام : ١٢٥ . (٧) هود : ١١٨ - ١١٩ . (٨) الأعراف : ١٧٩ .

(٩) الذاريات : ٥٦ .

(١٠) الأنعام : ١٣٠ .

الصحابة قال : « للجن كانوا أحسن جواباً منكم .. »[1].. دعاهم إلى طاعة الله لما فيه من الأمر والنهى ، لا إلى مجرد حديث لا طاعة معه ، فإن مثل هذا التصديق . كان مع إبليس ، فلم يُغنِ عنه من الله شيئاً .

والدلائل الدالة على هذا الأصل ، وما فى الحديث والآثار ، من كون الجن يحجون ويصلون ويجاهدون ، وأنهم يعاقبون على الذنب : كثيرة جداً .

وقد قال تعالى فيما أخبر عنهم : ﴿ وأنَّا مِنَّا الصالحون ومِنَّا دون ذلك كُنَّا طرائق قدداً ﴾[2].. قالوا : مذاهب شتى مسلمين ويهود ونصارى وشيعة وسنة .

فأخبر أن منهم الصالحون ، ومنهم دون الصالحين ، فيكون : إما مطيعاً فى ذلك فيكون مؤمناً ، وإما عاصياً فى ذلك فيكون كافراً ، ولا ينقسم مؤمن إلى صالح وإلى غير صالح ، فإن غير الصالح لا يعتقد صلاحه لترك الطاعات ، فالصالح هو القائم بما وجب عليه ، ودون الصالح لابد أن يكون عاصياً فى بعض ما أمر به ، وهو قسم غير الكافر ، فإن الكافر لا يوصف بمثل ذلك ، وهذا يبين أن فيهم من يترك بعض الواجبات والله أعلم .

أما عبادة المشركين للجن والذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صنفان :

قوم نوح ، وقوم إبراهيم : فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم ..

وقوم إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر ..

وكل من هؤلاء يعبدون الجن ، فإن الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على أشياء ، وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة وإن كانوا فى الحقيقة إنما يعبدون الجن فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾[3]..

---

(١) أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » ٢٣٢/٢ ، وأبو داود فى «مسائل الإمام أحمد ابن حنبل» (٢٩٦) ، وابن أبى الدنيا فى « الشكر » (٣٧) ، وابن كثير ٢٨٥/٧ والقرطبى ١٥٨/١٧ .

(٢) الجن : ١١ . (٣) سبأ : ٤٠ – ٤١ .

والملائكة لا تعينهم على الشرك لا فى المحيا ولا فى الممات ولا يرضون بذلك ، ولكن الشياطين قد تعينهم وتتصور لهم فى صور الآدميين فيرونهم بأعينهم ويقول أحدهم : أنا إبراهيم .. أنا المسيح .. أنا محمد .. أنا الخضر .. أنا أبو بكر .. أنا عمر .. أنا عثمان .. أنا على .. أنا الشيخ فلان . وقد يقول بعضهم عن بعض : هذا هو النبى فلان أو هذا هو الخضر ويكون أولئك كلهم جناً يشهد بعضهم لبعض ، والجن كالإنس فمنهم الكافر ومنهم الفاسق ومنهم العاصى وفيهم العابد الجاهل ، فمنهم من يحب شيخاً فيتزيا فى صورته ويقول : أنا فلان ، ويكون ذلك فى بَرِيَّة ومكان قفر فيطعم ذلك الشخص طعاماً ويسقيه شراباً أو يدله على الطريق أو يخبره ببعض الأمور الواقعة الغائبة فيظن ذلك الرجل أن نفس الشيخ الميت أو الحى فعل ذلك ، وقد يقول : هذا سر الشيخ وهذه رقيقته وهذه حقيقته أو هذا ملك جاء على صورته ، وإنما يكون ذلك جنياً ، فإن الملائكة لا تعين على الشرك والإفك والإثم والعدوان .

وقد قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضُّرِّ عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إنَّ عذاب ربك كان محذوراً ﴾[1].. قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعُزَيْر والمسيح فَبَيَّنَ الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله ، كما أن الذين يعبدونهم عباد الله . وبين أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباده الصالحين ..

ولا ريب أنَّ الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ماهو من أسباب ضلال بنى آدم ، وجعل القبور أوثاناً هو أول الشرك ، ولهذا يحصل عند القبور لبعض الناس من خطاب يسمعه وشخص يراه وتصرف عجيب ما يظن أنه من الميت وقد يكون من الجن والشياطين ، مثل أن يرى القبر قد انشق وخرج منه الميت وكلمه وعانقه ، وهذا يرى عند قبور الأنبياء وغيرهم ، وإنما هو شيطان ، فإن الشيطان يتصور بصور الإنس ويدعى أحدهم أنه النبى فلان أو الشيخ فلان ويكون كاذباً فى ذلك ..

وفى هذا الباب من الوقائع ما يضيق هذا الموضع عن ذكره ، وهى كثيرة جداً ، والجاهل يظن أن ذلك الذى رآه قد خرج من القبر وعانقه أو كلمه هوالمقبور أوالنبى أو الصالح وغيرهما ، والمؤمن العظيم يعلم أنه شيطان ويتبين ذلك بأمور :

---

(١) الإسراء : ٥٦ – ٥٧ .

أحدها : أن يقرأ آية الكرسى بصدق ، فإذا قرأها تغيب ذلك الشخص أو ساخ[1] فى الأرض أو احتجب ، ولو كان رجلاً صالحاً أو ملكاً أو جنيا مؤمنا لم تضره آية الكرسى وإنما تضر الشياطين ، كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة لما قال له الجنى : اقرأ آية الكرسى إذا أويت إلى فراشك فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فقال النبى ﷺ : « صدقك وهو كذوب »[2]..

ومنها : أن يستعيذ بالله من الشياطين .

ومنها : أن يستعيذ بالعوذ الشرعية ، فإن الشياطين كانت تعرض للأنبياء فى حياتهم وتريد أن تؤذيهم وتفسد عبادتهم ، كما جاءت الجن إلى النبى (ﷺ) بشعلة من النار تريد أن تحرقه فأتاه جبريل بالعوذة المعروفة التى تضمنها الحديث المروى عن أبى التياح أنه قال : سأل رجل عبد الرحمن بن حبيش وكان شيخاً كبيراً قد أدرك النبى (ﷺ) : كيف صنع رسول الله (ﷺ) حين كادته الشياطين ؟ قال : تحدرت عليه من الشعاب والأودية ، وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله (ﷺ) ، قال : فرُعب رسول الله (ﷺ) فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يامحمد ، قل : قال : ما أقول ؟ قال : قل : « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما يخرج من الأرض ومن شر ما ينزل فيها ومن شرّ فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقاً يطرق بخير يارحمن » ، قال : فطفئت نارهم وهزمهم الله عز وجل[3]..

فإذا كانت الشياطين تأتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتؤذيهم وتفسد عبادتهم ، فيدفعهم الله تعالى بما يؤيد به الأنبياء من الدعاء والذكر والعبادة ومن الجهاد باليد ، فكيف من هو دون الأنبياء ؟ .

فالنبى (ﷺ) قمع شياطين الإنس والجن بما أيده الله تعالى من أنواع العلوم والأعمال ومن أعظمها الصلاة والجهاد ، وأكثر أحاديث النبى (ﷺ) فى الصلاة والجهاد ، فمن كان متبعاً للأنبياء نصره الله سبحانه بما نصر به الأنبياء .

---

(١) ساخ : اختفى .

(٢) أخرجه البخارى ١٤٩/٤ ، وابن خزيمة فى « صحيحه » (٢٤٢٤) ، والألبانى فى « الصحيحة » (١٥٢٩) وغيرهم ..

(٣) أخرجه الإمام أحمد ٤١٩/٣ ، والبيهقى فى «الأسماء والصفات» (٢٥) =

وأما من ابتدع ديناً لم يُشرّعوه ، فترك ما أمروا به من عبادة الله وحده لا شريك له واتباع نبيه فيما شرعه لأمته ، وابتدع الغلو فى الأنبياء والصالحين والشرك بهم فإن هذا تتلعب به الشياطين ، قال تعالى : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾[1].. وقال تعالى : ﴿ إنَّ عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[2]..

والشياطين يوالون من يفعل ما يحبونه من الشرك والفسوق والعصيان

فتارة يخبرونه ببعض الأمور الغائبة ليكاشف بها ..

وتارة يؤذون من يريد أذاه بقتل وتمريض ونحو ذلك ..

وتارة يجلبون له من يريده من الإنس ..

وتارة يسرقون له ما يسرقونه من أموال الناس من نقد وطعام وثياب وغير ذلك ، فيعتقد أنه من كرامات الأولياء وإنما يكون مسروقاً .

وتارة يحملونه فى الهواء فيذهبون به إلى مكان بعيد ، فمنهم من يذهبون به إلى مكة عشية عرفة ويعودون به فيعتقد هذا كرامة ، مع أنه لم يحج حج المسلمين : لا أحرم ولا لبى ولا طاف بالبيت ولا بين الصفا والمروة ، ومعلوم أن هذا من أعظم الضلال ... إلى غير ذلك كثير .. وبعد .

فإن سيد قطب رحمه الله قد كتب فى الظلال عن الجن وكان من خيرة مَنْ كَتب ، فقد بين عبادة مشركى العرب للجن وبيان أسطورة الصلة بين الله وبين الجن كما بَيَّنَ كيفية استمتاع الجن بالإنس والإنس بالجن كما بَيَّن أنَّ الجن لا تعلم الغيب وتكلم على القرين من الجن وَبَيَّن حقيقة وجود الجن فى الاستعداد للهدى والضلال وإثبات نكاح الجنى للإنسى إلى غير ذلك مما احتواه هذا السفر القيم ، رحم الله الشهيد سيد قطب وكثر فى المسلمين من أمثاله إنه على ما يشاء قدير . والحمد لله رب العالمين .

= و (١٨٤)و (١٨٥)وأبو نعيم فى «دلائل النبوة» ١/ ٦٠ .

(١) النحل : ٩٩ / ١٠٠ .   (٢) الحجر : ٤٢ .

فهرس الكتاب